سلسلة أعلام الجهاد (٥)

الجريمة

جرح - ودم

وشاهد لا يواريه الزمن

رحلة مع الإمام المظلوم
يحيى بن عبد الله عليهما السلام

تأليف/

يحيى محمد محمد المؤيد

مراجعة وتصحيح

عبد الرحمن محمد المروني

ذبح ألف مرة ...

فجروحه لا تكاد تحصى ... وآلامه من كثرتها لا يطيق السامعون صبراً عليهاحين تشتكي.

إنه ضمير العدالة ... إنه النور الذي كلما ظن الطغاة أنه قد تبدد وانتهى، عاد ليعلن عن وجوده ... إنه الجهاد في سبيل تحقيق العدالة والعبودية لله وحدة.

من هناك من ذلك النور المتوهج... والنبع الذي لاينضب...

يطل علينا يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (سلام الله عليهم) بمأساته الفريدة... ومظلوميته التي لا تقارن.

بين يدي القارئ الكريم أحداث هذه المأساة بعنوان ((**جريمة جرح ودم وشاهد لا يواريه الزمن**)) في أبدع صورة وأبسط عبارة... عذبة وسلسلة.. فيها العَبْرة .. وفيها العِبْرة... وفيها زاد للدعاة في سبيل الله ...

المؤلف

الإهداء

إلى هناك حيث شباب الإيمان، ودعاة الإسلام، يعكفون على العلم والعبادة، إلى رحاب كل مركز صيفي ومدرسة علمية، أقدم هذا الجهد المتواضع هدية تقلب صفحاته تلك الأيدي الطاهرة، وتسبح مع أحداثه تلك العقول الحالمة، بغدٍ مشرق ومستقبل مغدق.

إلى طلاب وعاملي المراكز الصيفية، وكل داعم لهذه النهضة العلمية، أتقد م بهذه السطور المتواضعة طالباً ودّهم ودعاءهم، معلنا بهذه الكلمات عن الحب والولاء لحبيب قلوبنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الأخيار الشيعة الأبرار.

راجياً من الله أن يكرمني بشفاعتهم، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

تصدير

مما لا شك فيه أن التاريخ جهل -أو تجاهل- فضائل كثير من الفضلاء، وأتاح الفرصة لأعدائهم فتكلموا فيهم بما لا يليق.

لأن التاريخ ظلوم جهول متجاهل يتجاهل فضائل المصلحين المخلصين، وكثيراً ما يرفع شأن المبطلين ويثني على المفسدين، لأنه صفحة مفتوحة يسجل فيها الكتَّاب ما يشاءون فيحفظها لمن بعدهم.

فإن لم يجد من أهل الحق من يسجل على صفحاته حقهم، ويذكر فضائلهم، تجاهلها كما تجاهل فضائل من سبقهم، وأبقى كلمات أعدائهم، بل وأبدلهم بالنور ظلمة، وبالصدق كذباً، وبالذكر الجميل ذكراً قبيحاً، وبالحقائق أوهاماً وتشكيكاً. ثم لا يفتر يقلب الحقائق

حتى يسمي الشهيد شيطاناً، والآمر بالمعروف ظالماً جباراً، والمصلح الذي يتهالك في إصلاح مجتمعه وأمته مفسداً مكاراً.

ونظراً لما اعتاده بعض المؤرخين من التهميش لتلك الشخصيات العظيمة من أهل البيت عليهم السلام.. وحتى لا يُظلمَ هذا الإمام المؤمن المجاهد، أو يسجل له التاريخ على ألسنة معاديه تاريخاً مظلماً مغلوطاً غير تاريخه الأبلج المشرق بالأنوار المحمدية والفضائل العلوية ..

نقدم هذا الكتاب مساهمة منا في نشر المعرفة؛ وإظهار الحقيقة؛ وتصحيح المفاهيم المغلوطة.

والله من وراء القصد.

الناشر

إفتتاحية

الطغاة ... ودعاة العدالة ... طرفي نقيض على مر العصور.

ففي كل عصر يرسم الطرفان لنا مشهداً تتفاوت شناعته بين طاغية وآخر.

وكذلك يتفاوت البذل فيه بين داعية وآخر.

وبين درجات ومراتب المجد يتسابق الخالدون الداعون إلى العدالة، فتراهم مرة يحلقون في السماء، ومرة ترى الساحة تخلو منهم، وأخرى تراهم يضعفون أمام ضربات الطغاة الذي لا يخلو منهم عصر من العصور.

ولكن التاريخ قد يضاعف المأساة، ويعين الظالمين على ظلمهم عندما يمجِّد الطغاة، ويخفي محاسن رواد العدالة وأصفياء العصور لكي يظفر كاتبوه برضا

أو عطاء وحب أمير.

فكان من واجب كل إنسان يؤمن بضرورة الدفاع عن حقوق الإنسان سواءً الحي منهم أو الميت أن يعمل كل ما في وسعه لإظهار الحقيقة.

فإذا كان الماضون من المستضعفين قد سفكت دماؤهم ومثلّ الطغاة بأجسادهم، فلماذا نزيد الأمر سوءاً بأن نترك مؤرخي البلاط يهتكون أعراض أهل الحق ليزيدوا سلطانهم الطاغية مجداً إلى مجده.

فأي مظلومية أعظم من أن يُظلم الإنسان حياً وميتاً.

ولذلك أصرخ منادياً لكل كاتب حرٍ يبحث عن الحقيقة أن يسخر قلمه لرفع ذلك الظلم الذي تأباه كل نفسٍ كريمة.

وها أنا ذا أقدم بين يديك عزيزي القارئ هذه السطور المتواضعة لأنتزع من كنوز التأريخ قصة أحد تلك

الشخصيات التي حلقت في سماء العظمة، فأراد الطغاة أن يخمدوا صدى ذكرها بعد أن أخمدوا أنفاسها.

ذلك هو الإمام المجاهد الشهيد:

يحيى بن عبد الله (عليه السلام)

الـذي أرجـو أن أكـون قـد وفِّقـت في عـرض حياتـه بإسلوب قصصي مبسط.

فتعال معي أخي القارئ الكريم لنعيش مع هذا الإمـام أيـام حياتـه التي ما ترك له الطغاة فيها راحة إلا ونغَّصوها.

المؤلف

مدخل

من هناك من عمق المأساة.....

من أعماق تلك المغارة المظلمة التي إعتاد الناس الإنبهار بمظهرهـا، غير ملتفتين إلى ما يخفيه باطنها.

أنتزع هذه الوقائع التاريخية التي تفوق أحداثها الروايات الخيالية.

مأساة لو وضعت في كفة وأحداث محاكم التفتيش في كفة لرجحت هذه المأساة.

إنها المأساة التي تسترَّ عليها المؤرخون طويلاً، وتـسترَّ عليهـا علـماء البلاط، وزيفت أحداثها أقلام المؤرخين ... لكي يبقى المظلوم مظلوماً حياً وميتاً.

وآن لها أن تخرج إلى الساحة الإسلامية ... ليقول كـل حـرفٍ منهـا لكل ظالم عنيد ومستهتر بحقوق الإنسانية:

مهما تسترتم فإنَّ المستقبل كفيلٌ بأن يفضحكم وأن يخلع عنكم تلك العباءة التي أخفيتم نحتها جرائمكم المنكـرة وإن نـور الحـق لا بـد أن يسطع يوماً ليقول للطغاة: لا وألف لا!!

فتعالوا معي لنعـيش أحـداث هـذه الروايـة مـع شخـصية الإمـام المظلوم **يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بـن أبي طالـب عليهم السلام**

الباب الأول

الفصل الأول

(١)

في ليلة من ليالي عام ١٦٩ للهجرة جعل الليل يلُفُّ ساحات فخ[1] بظلامه، وكأنه أتى ليستر الجريمة النكراء ويواري آثارها.. ويزيد ساحات فخ وحشة إلى وحشتها.

فساحات فخ قد شهدت ضجيجاً لم تشهد له مثيلاً من قبل، فأتى الليل ليعيد إليها سكونها.

ولكن ذلك الظلام القاتم والسكون الموحش ..كان يمزِّق سكونه بعض أنين ينبعث من هنا وهناك...فالجثث الممزقة الأشلاء، العارية

---

(١) فخ: موضع قريب من مكة وهو المكان الذي وقعت فيه معركة فخ سنة ١٦٩هـ التي قتل فيها الحسين بن علي الفخي.

من الثياب، المجردة من الرؤوس، كانت تملأ الساحات، فتنام على الثرى في هدوءٍ قاتل وسكون مخيف.

لقد ذهب المجرمون وتركوا آثار جريمتهم ليشهد عليها ظلام الليل ونجوم السماء، بعد أن شهد عليها ضوء النهار، وجموع الحجيج.

كان ذلك الأنين المنبعث يعلن عن وجود قلبٍ نابض، ونفس حية في عالم الأموات.

ولكن ذلك الأنين كان يعلن بين لحظة وأخرى عن قرب لحوق صاحبه بركب تلك القافلة التي بدأت رحلتها صباح ذلك اليوم المنصرم .. والذي يعني لحوقه بعالم الأموات.

إن الجريح يحتاج إلى ضماد وطبيب ... يحتاج إلى من ينتشله من بحور الأنين والآلام إلى شواطئ العافية والصحة.

وأرادت عناية الله أن تُبقي للحق شعاعاً، ومن الشمس الذي حاول الظالمون إخماد توهجها قبساً يستضيء بنوره الحيارى.

وها هو روح الحنو والقرابة، ودافع الغيرة والمروءة، وواجب الدين ينبعث في أعماق رجال من خزاعة.

عليه السلام حدهم رضي الله عنه عليه السلام نترك عليه السلام جساد عليه السلام رسول الله نهباً للوحوش رضي الله عنهم رضي الله عنها عليه السلام ليس فينا من يواريها رضي الله عنهم

عليه السلام آخر رضي الله عنهم يا قوم لقد خذلتموهم عليه السلام حياءً فلا تخذلوهم عليه السلام مواتاً رضي الله عنها

ثالث رضي الله عنهم نحن عليه السلام خوالهم وحلفاؤهم فتعالوا لنواري جثثهم رضي الله عنها

وذهب الجميع لدفن تلك الأشلاء المبعثرة هنا وهناك...وجذبهم الأنين المنبعث إلى جهة منعزلة ليروا جثتين مرميتين هي أشبه بالقنافذ لما قد علق بها من السهام.

فأقبلوا مسرعين نحو الجثتين يتسابقون مع نزعات الموت التي تكاد أن تختطف الأرواح.

وحملوا الجثتين إلى قبيلة خزاعة قريباً من ساحل البحر الأحمر. حيث الأجواء خالية من الجاسوسية العباسية.

وبدأ الطبيب في حشو الجروح المتناثرة على الأجساد بالشحم

وأنواع الدواء.

الخزاعي: عسى أن لا تكون جروحهم قاتله.

الطبيب: الحمد لله كل ما فيهم من الجراحات ستشفى بإذن الله.

وبدأ الجريحان يرحلان من حافة الخطر إلى شواطئ الأمان ... ومِن شفار الموت الذي أراده لهم الخليفة العباسي موسى -المسمى بالهادي- إلى ضفاف الحياة الذي أرادها الله لهم..

لقد كانت معركة فخ تمثل كربلاء[1] السادسة، فقد حاول عباد

---

(1) حيث قد جرت خمس معارك قبلها هي على الترتيب:

-معركة كربلاء التي قتل فيها الإمام الحسين (ع)، سنة ٦١هـ.

-المعركة التي وقعت بكناسة الكوفة بالعراق والتي قتل فيها الإمام زيد بن علي (ع) سنة ١٢٢هـ.

-المعركة التي وقعت بمدينة الجوزجان بخراسان والتي قتل فيها الإمام يحيى بن زيد بن علي (ع) سنة ١٢٦هـ.

-المعركة التي وقعت بالمدينة المنورة والتي قتل فيها الإمام محمد بن عبد الله النفس الزكية (ع) سنة ١٤٥هـ.

-معركة باخمرا بالعراق التي قتل فيها الإمام إبراهيم بن عبد الله بن الحسن (ع) بعد مقتل أخيه النفس الزكية (ع) سنة ١٤٥هـ.

السلاطين أن يلتمسوا رضاء ساداتهم. بحصد رؤوس أهل البيت (ع).

فلم ينج من هذه المعركة إلا من سقط مغشياً عليه لشدة الجراح في أوساط القتلى، أو اختلط بالحجيج فلم يعرف..

ولكن عين الخليفة الخائف على سلطانه لم تكن لتنام عن الناجين من أهل بيت النبوة.

فلما حملت إليه رؤوس القتلى في معركة فخ جعل يستعرضها رأساً رأساً وكأنه يبحث عن شيء ما.

موسى الهادي رضي الله عنهما وهو يلتفت إلى القائد الأول للمعركة رضي الله عنهم لم عليهم السلام جد في الأسرى ولا في الرؤوس يحيى بن عبد الله وإدريس بن عبد الله فأين هم رضي الله عنهم

العباس بن محمد رضي الله عنهم عليهم السلام يتهما في المعركة رضي الله عنهم ولكن لم عليهم السلام علم بمصيرهما رضي الله عنهما

موسى الهادي: إذاً لم تنته المعركة بعد ... لا بد من يحيى وإدريس، فأنا أعرف يحيى أنه لن يستريح حتى يثأر لأهل بيته، والله ليحيى وإدريس أشد خطراً من كل من قتلتم وأسرتم في هذه المعركة.

محمد بن سليمان مرهما سهل يا مولاي فقد رأيت يحيى وقد صار كالقنفذ لكثرة ما تعلق به من السهام فلا يراه يعيش بعد تلك الجراحات وإن عاش فلن يستطيع الهرب فلا بد أنه قريب من المكان فحاله لا يحتمل السفر

موسى الهادي وهو يلتفت إلى الكاتب اكتب إلى العُمَري في المدينة أن يرسل في طلبهما الجند والجواسيس حتى يأتيني بهما فلن يستقر بي حال حتى يكونا بين يدي مُره أن يبحث عنهما في كل قرية من قرى العرب

* * *

وصلت رسالة الخليفة إلى والي المدينة عمر بن العزيز العُمَري، فكانت غاية ما يطلب، فقد خرب ديار بني هاشم في المدينة واستصفى أموالهم .. وليس في نفسه إلا أن يطارد من نجا منهم، فهو لم يعد يحتمل سماع ذكرهم. فكيف برؤيتهم على قيد الحياة؟!

ونفذ الأمر من ساعته فأرسل الجواسيس يجوبون قرى العرب ويتلمسون الأخبار عن الناجين من أهل البيت، ثم أخذ القاسم بن محمد بن عبد الله النفس الزكية، والحسن بن علي أخو الحسين بن علي صاحب فخ، وموسى بن عبد الله، والكثير من الموالي، وبعث بهم إلى الخليفة المسمى بالهادي فقتلهم شر قتلة[1].

ولم تمض مدة من الزمن حتى كان الجنود والجواسيس يفتشون خيام قبيلة خزاعة وساحاتها.. واستشعر الخزاعيون الخطر.

لقد جعل جواسيس العُمَري يسألون الطفل والشيخ عن كل من دخل قبيلتهم من الغرباء.. وهل هناك أحد من الغرباء نزل عليهم أو رجل من بينهم؟

فأدرك الخزاعيون أن القوم يريدون يحيى وإدريس..

فلما أرخى الليل سدوله وغرق الناس في نومهم كان الخزاعي قد أعد ما يحتاجه المسافر..ثم دخل على يحيى

---

(١) راجع قصة الإمام الحسين بن علي الفخي (ع) ضمن هذه السلسلة.

وإدريس ومن كان معهم فأيقظهم حتى استيقظ الجميع.

الخزاعي يا بناء رسول الله والله لو عشتم في وسطنا الدهر كله ما رأيتم منا إلا ما يسر خواطركم ولكن والله لا يمكن عليكم أن تؤخذوا من بين وسطنا عنوة فلا نستطيع أن ندفع عنكم فلا حول لنا ولا قوة على مواجهة السلطان وقد عدّيت لكم رواحل تحملكم إلى ساحل البحر فلا أرى لكم مكاناً في الجزيرة فجواسيس العباسيين تبحث عنكم في كل مكان وقد حل علينا بعضهم قبل يوم وخاف أن يكونوا قد علموا مركم فاركبوا إلى ساحل البحر ثم اركبوا البحر إلى ملك الحبشة فإنه إذا عرف مقامكم من رسول الله عرف لكم حقكم وأنزلكم منزلة طيبة إن شاء الله

نظر يحيى بن عبد الله إلى أخيه إدريس بعد أن سمع كلام الخزاعي وتنفس الصعداء.. وتجهزا من فورهما للسفر.

وفي ثلث الليل الأخير ودع يحيى وإدريس ورفاقهما ديار قبيلة خزاعة ليبدأوا رحلة التشرد من جديد، فكم يذكرون برحلتهم هذه رحلة المسلمين الأوائل الذين استضعفتهم قريش فضاقت بهم جزيرة العرب فاختار لهم الرسول الإلتجاء إلى ملك الحبشة .

وكأنه كتب على آل محمد أن يعيشوا من أجل نصرة الحق مشردين، فبالأمس كان على رأس المهاجرين إلى الحبشة جعفر الطيار، واليوم وبعد أعوامٍ طويلة يهاجر إليها يحيى بن عبد الله ورفاقه ... فارين من ظلم الطغاة بدينهم وأبدانهم.

وعاد جواسيس العُمَري .. وقد خاب أملهم وتقطعت بهم الأسباب، فلم يجدوا ليحيى ورفيقه أثراً.

* * *

وبعد مضي عام واحد على معركة فخ عاجل الموت الخليفة العباسي المسمى بالهادي، في ليلة الرابع عشر من ربيع الأول من عام

١٧٠هجرية بعد مقتله على يد بعض جواريه بتحريض من أمه .. وارتحل إلى عالم الجزاء، لينال جزاء ما اقترفت يداه.

وأقبل ابن الثانية والعشرين ليتربع على كرسي الخلافة...ليزيد الحيف حيفاً والظلم ظلاماً.

فانشغل الخليفة الشاب هارون الملقب بالرشيد بإشباع رغباته التي كان قد حرم منها في أيام أخيه.

فقد أخرج من كان في السجون من الندماء ورفقاء اللهو .. ورفع من شأن أهل الفن والطرب.

فازدحمت قصوره بأهل المزامير وأصحاب الطبول والأصوات الشجية.

وغرق في بحور الشرب والمتعة والوله ببنت عمه زبيدة التي خيم حبها في جوانح قلبه، واستولت على عقله ولبه.

(٢)

وصل يحيى بن عبد الله ومن معه إلى الحبشة ..

فاستقبلهم ملكها أحسن استقبال وأكرم وفادتهم وأحسن إليهم .. وكان ليحيى بن عبد الله من التأثير على ملك الحبشة ما جعله يسلم على يديه ويخفي عن قومه إسلامه .. تماماً كما فعل النجاشي رحمة الله عليه يوم أن أسلم على يد جعفر بن أبي طالب، وصلى عليه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم صلاة الغائب بعد موته؛ لأنه لم يكن هناك في الحبشة من يصلي عليه صلاة الجنازة.

ومرَّت الأيام ويحيى بن عبد الله ومن معه ينعمون بكرم ملك الحبشة الذي كان يصغي إليهم كثيراً ليدلوه على معالم دين الإسلام الذي كان يدين به سراً خوفاً من أهل مملكته.

وبدأ أهل الفضل والعلم ومن لهم رغبة في إظهار الحق واستنقاذ الأمة من أيدي الأكاسرة الذين صيروا دولة الإسلام إلى ملكٍ عضوضٍ، يفدون من سائر الأمصار الإسلامية على يحيى بن عبد الله وهو باقٍ عند ملك

فلما كثر الأنصار ورأى يحيى أن الحجة قد لزمته، وأنه قد آن الأوان لكي يبث دعاته في الأمصار لعل الله أن يظهر الحق على يديه، شكر لملك الحبشة حسن صنيعه وكرمه وودّعه هو وجميع أصحابه ليعودوا إلى رحاب دولة الإسلام ..

وليبذلوا جهدهم في تقويم ما اعوج وإصلاح ما فسد من أحكام وشرائع الإسلام، وذلك بتعليم الناس وتبصيرهم ودعوتهم إلى دين الله الحق.

وجلس يحيى مع خلص أصحابه يشاورهم في الأمر وكيف تكون دعوتهم.

يحيى رضي الله عنه يا قوم رضي الله عنها إنا إن تنقلنا في البلاد بجماعتنا علم الناس بنا رضي الله عنه ونقلوا عليه السلام خبارنا إلى السلطان العباسي فظفروا بنا قبل عليه السلام ن نجمع الأنصار فصرنا لهم لقمة سائغة رضي الله عنها

إدريس رضي الله عنه فما الرأي يا أخي رضي الله عنهم

يحيى: أرى أن نتفرق في البلدان، كلٌ يكون له بلد بعينه، يحاول أن يُبصّر أهله معالم دينهم ويدعوهم إلى نصرتنا ثم نلتقي في موسم الحج، وكل يراسل صاحبه ويواصله.

أخوهم رضي الله عنهم الرأي ما تراه رضي الله عنها

فقسَّم يحيى بن عبد الله أصحابه -وكانوا تسعة- إلى ثلاث مجموعات .. مجموعة تتوجه إلى العراق، وأخرى إلى خراسان، وثالثة إلى مصر والمغرب، وبدأت كل مجموعة تعد نفسها للسفر.

ثم انعزل يحيى بأخيه إدريس جانباً.

يحيى رضي الله عنه يا إدريس رضي الله عنها رضي الله عنها لقد اخترت لك الخروج إلى المغرب رضي الله عنهم فقد بلغني عن حبيبي رحمه الله رحمة عمر الله عمر الله

(١) لقد تربى يحيى بن عبد الله عند جعفر الصادق (ع) وأوصى إليه بعد وفاته، لذلك لم يكن يحيى يذكر

رضي الله عنهما يقصد جعفر بن محمد رضي الله عنهما فيما يرويه عن عليهم السلام بائه عليهم السلام ن لنا فيها راية رضي الله عنه عليهم السلام رجو عليهم السلام ن تكون معك رضي الله عنه فاستبْشِر خيراً إن شاء الله رضي الله عنهما

وبدأت لحظات الوداع لتظلل المكان بآلام الفراق وآمال الرجال الذي صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فبذلوا أنفسهم للدعوة إلى دين الله والجهاد في سبيله.

وارتحل الجميع معلقين رجاءهم بالله أن يحقق للأمة الإسلامية الخير على أيديهم.

(٣)

لقد كان السبب في خروج يحيى بن عبد الله هو انحرف ولاة بني العباس عن الدين أيما انحراف .. فأصبح الخليفة متبعاً لهواه، ومنقاداً لشهواته يقتل من يغضب عليه، وينعم على من رضي عنه، ويستأثر

الإمام جعفر إلا بهذه الصفة.

بالأموال هو وحاشيته دون سائر الناس .. مما جعل الناس يتوددون للسلطان ويتقربون منه طلباً لرضاه ولو كان في ذلك معصية لله عزّ وجلّ..

فخرج يحيى بن عبد الله ومن معه إلى بلاد مصر، ومنها إلى الحجاز.. يبتغون تجديد العهد بمدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والنظر في أحوال من بقي في الحجاز من أهل البيت.

وجعل يحيى بن عبد الله يتنقل من بلد إلى بلد متنكراً ينزل وحده ويرحل وحده .. وكان من معه يتبعونه عن بُعد، حتى أن الناظر إليهم يعتقد أن لا صلة لهم به.

فلما وصل إلى المدينة كان قد أطل موسم الحج .. وحج بالناس في ذلك العام هارون الرشيد.

وكان بعض جواسيس السلطة العباسية قد أبلغه أن يحيى بن عبد الله قد عاد من عند ملك الحبشة وجعل يتنقل في البلاد الإسلامية.

فمر الرشيد على جموع الجمّالين .. فدعاهم وأحسن لهم الجوائز وبالغ في إكرامهم، وكانوا يملكون وسائل النقل .. فلا يمكن أن يتنقل أحد في الديار الإسلامية إلا من خلالهم أو من يصادفهم في طريقه، ثم قال لهم:

من رأى رجلاً في طريقه قصيراً آدماً حسن الوجه لا يكاد يستقر في مكان حتى يرتحل، فليبلغ والي البلاد بمكانه وله عندي جائزة عظيمة.

فجدَّ الجميع في طلب هذه الشخصية التي لم تكن بعيدة عن موقع الجمالين، فقد علم بخبرهم وأدرك ما يضمر له الخليفة، فأخذ الحيطة والحذر...

* * *

كانت إخافة الظالمين هي أسمى عبادة في نظر يحيى بن عبد الله.. فقد تعمد أن يدخل الرعب على قلوب الظالمين.

لذلك سبق يحيى بن عبد الله موكب هارون المسمى بالرشيد

إلى بعض طرق مكة التي يمرون منها .. فقصد قبة في منتصف الطريـق فكتب عليها:

منخرق الخفين يشكو الوِجَا تنكبه أطراف مرو حدادْ
شرده الخوف من أوطانه كذاك من يكره حرّ الجِلادْ
قد كان في الموت له راحة والموت حتم في رقاب العبادْ

وكانت هذه الأبيات قد صارت شعاراً للخارجين على الظلم من أهل البيت عليهم السلام.

فلمـا أقبـل هـارون ومـر مـن جـوار القبـة رأى تلـك الأبيـات، فأقبـل يقـرأ مـا فيهـا، ثـم كتـب تحتهـا: لـك الأمان ... لك الأمان ... لك الأمان.

ولكن ما كانت مثل تلك العبارات المعسولة لتغر يحيى بن عبد الله، فقد عرف مع من يتعامل .. إنه يتعامل مع بني العباس، الذين لا يـرون للعهد وفاء، فهم يسارعون إلى نقض عهودهم والفتـك حتـى بـأقرب الناس إليهم ولم تكن أحداث الأمس عنه ببعيد.

فلما عاد يحيى بن عبد الله بعد زمن ومر بتلك القبة .. ورأى ما كتبـه

هارون عليها من الأمان .. فكتب تحت أمان هارون: لا أثق بـك ... لا أثق بك ... لا أثق بك.

* * *

إرتحل هارون من بلاد الحجاز، وقد أثقله وأهمه أمر يحيى بـن عبـد الله، وصار لا يرى العيش إلا نكداً .. فعاف الشراب وكف عـن مجونـه وصار لا يُرى إلا مهموماً..

وجعل يشك في جميع من حوله فيفرض عليهم الرقباء والجواسيس مخافة أن يكون فيهم من يميل إلى يحيى بن عبد الله.

ومضت الأيام وهارون على هذا الحال .. فرأى أن أمر الخلافة قد أثقل كاهله وحن إلى ماضيه الذي ليس فيه من تحمل المسئولية شيء إلا البحث عما لذَّ وطاب.

فأرسل إلى يحيى بن خالد البرمكي الـذي كـان محـط ثقـة الرشـيد وموضع سره، فقلده جميع الأمور.. وأوكل إليه مهام الخلافة.

هارون: اسمع يا يحيى .. لقد أخرجت هذا الأمر من عنقي إلى عنقك، فانظر في أمرك ولا تشغلني عما أنا فيه.

يحيى بن برمك: أنا خادمك وطوع أمرك، أرجو أن لا تجد مني إلا ما يسرك.

وتولى يحيى البرمكي أمر الدولة وإدارة شئونها وأرسل أولاده ولاةً على الأمصار.

أما هارون فقد غرق من جديد في طلب الملذات والغوص من جديد في بحور الهوى .. كان قد أخلى باله من كل مهام الخلافة، إلا من أمر واحد هو البحث عن يحيى بن عبد الله وتتبع خُطاه .. فأمر يحيى بن عبد الله كان يعكر صفوه، وينغص عليه راحته، ولذلك لم يأل جهداً في الإحسان إلى كل من ينقل إليه أخباره أو يدله على مكانه.

الفصل الثاني

كان يحيى بن عبد الله قد إتجه إلى بلاد اليمن حيث الدولة العباسية أقل هيمنة ...

فدخل صنعاء وكان هناك بعض من كان قد عرفه من وجهاء اليمن، فلما نزل بعض أسواق صنعاء عرفه الرجل.. فجعل يتبعه حتى أدركه وعرف أين ينزل فأتاه يطرق بابه.

سمع يحيى بن عبد الله طرق الباب فخاف يحيى أن يكون الرجل من بعض جواسيس العباسيين.

يحيى: من الطارق؟

الرجل: أنا رجل من محبي آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

وشيعتهم؟!...ففتح يحيى الباب.

يحيى: ليس هنا أحد ممن تطلب .. فاذهب يا رجل؟

الرجل: افتح يا ابن رسول الله، والله لا صلة لي بمن تظن، إنما أنا رجل يريد صلتك ويرجو شفاعة جدك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بوصلك.

يحيى -وهو يفتح باب الدار: بسم الله، على الله توكلنا، فلن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

وفتح الباب فإذا برجل حسن الوجه تظهر عليه معالم الشرف والنبل والغنى.

فجعل يحيى يتأمل فيه قليلاً، ثم قال له:

رضي الله عنهما تفضل يا عليه السلام خا الإسلام رضي الله عنهما عليه السلام رجو المعذرة فأنا غريب في هذه البلاد لا عليه السلام عرف عليه السلام حداً رضي الله عنهما

الرجل ولكني عرفك يا ابن رسول الله فاجمع متاعك وهيا معي فالمقام هنا لا يليق برجل مثلك

يحيى: اخفض صوتك يا رجل .. فوالله لو علم بي جنود العباسيين لم أبت هذه الليلة إلا في سجونهم...ولكن ممن الرجل؟ وإلى أين نذهب؟

الرجل انا زكريا بن يحيى بن عمر بن سابور من بناء ملوك اليمن ما إلى ين فإلى داري

يحيى يا رجل لا تعرض نفسك للخطر إن الوالي إذا علم بنزولي عليك ذاك وسلبك مالك إن لم يسلبك روحك

زكريا لن يعرف حد مقامك فالدار واسعة وليحدث ما يحدث فلن تركك في هذه الخان القذرة

ونـزل عند الرجل في خير منـزل لا يعرف أحدٌ من أخباره شيئاً.

* * *

وعرف بعض الفضلاء وأهل العلم بخبره...فجعلوا يغـدون إليـه ويروحون وهو لا يفارق الدار.

فكتبوا عنه علماً كثيراً، وكان محمد بن إدريس الـشافعي مـن أعظـم من رافقه واستفاد من علمه في فترة بقائه في اليمن.

فيحيى بن عبد الله تربى على يد جعفر بن محمد الذي كان يـضرب به المثل في غزارة علمه فصار يحيى بن عبـد الله مـن أكثـر أهـل البيـت علماً.

وبقي يحيى بن عبد الله في صنعاء على ذلك الحال ثمانية أشهر يعلِّـم الناس، ويبصرهم معالم الدين، ويدعوهم إلى الأمر بـالمعروف والنهـي عن المنكر.

فلما خاف أن يعرف الجواسيس خبره فيدلون عليه، خرج من الديار اليمنية يبغي بلداً آخر، لعله يجد من يناصره، ويخرج معه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فجعل ينتقل من بلد إلى بلد يستريح النهار ويسافر في الليل مخافة أن يكشف أمره.

(٢)

كان الناظر إلى يحيى بن عبد الله وإلى حاله لا يكاد أن يصدق أن نسل محمد صلى الله عليه وآله وسلم صار مشرداً طريداً، لا تتسع له ديار الإسلام على كثرتها واتساعها.

وقادته الظروف وكثرة الجواسيس إلى دخول بغداد...حتى يعمي عنه أعين الجواسيس الذين اختارهم هارون من أكثر الناس تنقلاً في البلاد والأسواق ومنازل

المسافرين والطرق والمساقي، لا سيما الحمّالين الذين كانت مهنتهم تساعدهم على تتبع أخباره.

وبعد أن دخل يحيى بن عبد الله بغداد استقر في بيت رجل من الشيعة الذين كان لهم به معرفة، وبقي مختفياً في الدار بعيداً عن الأنظار لا يأتيه إلا من علم ولاءه وتأكد له حسن سريرته..

* * *

ولكن كيف النجاة من رجل قد اشترى من الناس ضمائرهم.. وصار الناس يبيعونه دينهم بشيء من حطام الدنيا؟

فقد لاحظ أحد أصحاب الدور المجاورة للدار التي نزل فيها يحيى بن عبد الله كثرة من يتردد على الدار الذي يسكنه يحيى على غير عادة من ذي قبل.

فجعل يراقب الوضع ويتتبع الأخبار لعله يكتشف ما يدور داخل الدار ...وبعد جهدٍ جهيد حصل على مراده،

فقد علم من الذي في الدار وعلى من يتردد الناس.

فأشرقت أساريره وطمع في جائزة الخليفة التي لا شك بأنها ستكون مغرية .. وهب من ساعته مسرعاً نحو قصر الخلافة وجعل يتوسل الجند والحرس من أجل الوصول إلى الخليفة حتى أدرك مُنيته.

الحاجب يا مولاي في الباب رجل يتردد على باب القصر منذ يام ويصر على مقابلتك

هارون: ألم تعلم ما حاجته؟

الحاجب: إنه يقول إنه سر من أسرار الخلافة إلى على نفسه أن لا يحدث به أحداً غيرك.

هارون دخله فوالله لئن لم يكن الأمر ذو همية لأذيقنه حر السياط

فلما دخل الرجل ووقف بين يدي هارون الرشيد...جعل يتلكأ في الكلام من هيبة السلطان.

هارون تكلم يا رجل فماهو ذلك السر

الذي حجبته حتى عن وزيري وجميع من في قصري رضي الله عنهم

الرجل رضي الله عنهم يا مولاي رضي الله عنها لقد عرفت خبر يحيى بن عبد الله وعليه السلام ين ينغفر الله لهم زل رضي الله عنها

شدَّ هذا الخبر مسامع الخليفة وجعله وبلا شعور ينتصب واقفاً ويهرول نحو الرجل.

هارون رضي الله عنهم ماذا قلت يا رجل رضي الله عنهم

الرجل: نعم.. نعم يا مولاي، لقد عرفت أين ينـزل يحيى بن عبدالله.

هارون – وقد أخذ بتلابيب الرجل: تكلم .. تكلم يا رجـل أيـن هـو؟ ومتى رأيته؟

الرجل: إنه ينـزل في إحدى الدُّور المجاورة لداري وقد كَثُر الاختلاف إليه، فلما تقصّيت الخبر علمت أن النازل هو يحيى بن عبد الله.

أشرق وجه هـارون إشـراقة الظـافر بفريسته بعـد طـول بحث وعناء، ثم التفت إلى الرجل قائلاً:

رضي الله عنها إن كنت قد صدقتني فلأعطينك فوق ما تؤمل وتظن رضي الله عنها رضي الله عنها رضي الله عنها يا مسرور رضي الله عنه رضي الله عنها خذ هذا الرجل عندك حتى عليه السلام طلبه وتعرّف منه كل ما يخبرك به عن يحيى رضي الله عنها

ثم التفت هارون إلى يحيى البرمكي قائلاً: اسمع يا يحيى، ارسل الجنود على مداخل بغداد ومخارجها، وامنع الخروج منها أو الدخول إليها، وأمر أصحاب المسالح[1] والحراس أن يأتوني بكل غريب في كل درب وخان وسوق، فإني أخاف أن يعلم يحيى بن عبد الله أن أمره قد كشف فيسرع في الخروج فيفوتنا.

يحيى البرمكي-وهو يهم بالانصراف: أمرك يا مولاي.

* * *

وبالفعل انقلب هدوء القصر إلى ضجيج وحركة دؤوبة...وازدحمت الطرقات بالجنود واضطرب الناس في شوارع

---

(١) المسالح: أماكن المراقبة والحراسة.

بغداد.

وأقبل الجنود على الغرباء والمسافرين يسوقونهم إلى باب الخليفة سوقاً وأوقفوا القوافل ومنعوا المسافرين من الدخول إلى بغداد أو الخروج منها.

وأدرك صاحب الدار الخطر المحدق .. وعلم أن أمر يحيى بن عبد الله قد افتضح وأنهم لا شك صائرين هذا اليوم إلى الخليفة هارون...فأسرع إلى يحيى بن عبد الله في الدار ليخبره الخبر.

الرجل يا مولاي عظم الله جرك في نفسك وفي صاحبك والله لقد افتضح مرك وعلم الخليفة بوجودك في بغداد فأغلق الطرق ومنع الخروج والدخول وقام الجنود في كل منفذ ولا من يقتحموا علينا الدار في لحظة

يحيى بن عبد الله هدئ من روعك يا رجل وخذ هذا المال وسرع لتشتري لنا حمارين

الرجل وما الفائدة يا مولاي فأنا على يقين من أنه لن يسمح لنا بالتحرك بل سيكشف مرنا لا محالة

يحيى بن عبد الله: يا رجل لا تقنط من رَوْح الله وأسرع فيما طلبته منك.

الرجل -وهو يسرع نحو الباب حاملاً للمال: أمرك يا مولاي .. فقد وجبت لك علي الطاعة...وإن كنت أرى الأمر قد انتهى فلو رأيتَ ما رأيتُ لقطعتَ الأمل في النجاة، فلم يبق منفذ في بغداد إلا وقد اكتظ بالجنود.

فلما ذهب الرجل اغتسل الإمامُ يحيى بن عبدالله وتوضأ ثم صلى ركعتين وجعل يناجي الله يقلب خاشع معلقاً آماله بالله سبحانه تعالى، وهو يقول: اللهم إن تقض لنا النصر عليهم فإنما نريد إعزاز دينك وإن

---

(١) فارهين: قويين.

تقض لهم بالنصر علينا فما تختار لأوليائك وأبناء أوليائك من كريم المآرب وسني المراتب.

فلما أقبل صاحب الدار بالحمارين تحول يحيى عن الدار مخافة أن يهاجم فيها...وانتقل إلى مكان آخر وبقي هناك بقية يومه وجزءاً من الليل وقام يصلي ويدعو ويناجي الله حتى أشرف ثلث الليل الثاني على الانقضاء، فأقبل على الحمير وخذقها[1] كما يُفعل بحمير البريد .. ثم أمر صاحبه أن يركب أحدها وحدد له وجهتهما .. وأمره أن يسير بين يديه ويصيح كما يصيح الفرانق[2].

وانطلقا يسارعان في الخطى .. الرجل يصيح والإمام يكثر التلاوة والدعاء والمناجاة .. فلا يصلان إلى درب إلا

---

(١) خذقها: نخسها لتَجِدّ في السير. المنجد مادة (خذق).

(٢) الفرانق: صاحب البريد.

فتح بين أيديهما دو أن يعترضهما أحد .. وكأنها قد عميت أبصارهم وتبلدت عقولهم {وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ}

ولم يمر وقت طويل حتى وصل الإمام ورفيقه إلى خارج بغداد.

كان الرجل يردد بصره بين أسوار بغداد والموضع الذي هو فيه، وهو لا يكاد يصدق أنهما قد صارا خارج بغداد. ولسان حاله يردد: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}.

فلما تجاوزا سكة البريد أدخلا الحمارين إلى مكان قريب من بعض الأنهار مُختفٍ عن الأنظار .. ولبس الإمام بعض الثياب الخَلِقَة[1] ومضيا لحالهما يحثان الخطى حتى لا تطلُع عليهما شمس اليوم الثاني إلا وقد

---

(1) الخلقة: القديمة الممزقة.

صارا أبعد شيء عن بغداد.

وبينما هما يسرعان في ساعات الليل لا يكاد أن يرى الواحد منهما موضع قدميه لشدة الظلام إذ سمعا صوتاً يأمرهما بالتوقف، ثم يتبعه ببعض الكلمات... فتصلبت أجسامهما، وكادت الدماء أن تتجمد في العروق، فلم يكن يخطر ببال أحد أن هناك من يمكن أن يعترضهما بعد الخروج من آخر نقطة من نقاط التفتيش على أطراف مدينة بغداد.

إلتفتا نحو صاحب الصوت الذي لم يكادا يعرفان ماذا قال، فإذا بكوكبة من فرسان المسالح تحوطهما..

استوعب الإمام المفاجأة والتفت إلى الفرسان في سكون واطمئنان وكأن الأمر لم يفاجئه.

الإمام عسى ألا نكون قد أزعجناكم من نومكم

الفارس لا تخف عليه السلام يا الناسك فبغداد بأسرها لم تنم هذه الليلة رضي الله عنه فالخليفة لن يسمح لأحد بالنوم حتى يجد يحيى بن عبد الله رضي الله عنهما

الإمام ومن يحيى بن عبد الله هذا رضي الله عنه

الفارس إنه رجل حقير يدّعي الأمر لنفسه رضي الله عنهما رضي الله عنهما يريد عليه السلام ن يشق عصا المسلمين رضي الله عنهما

ثم قال ساخراً: أم لعلك أنت يحيى بن عبد الله؟!

الإمام عليه السلام و بمثل هذه الثياب تطلب الخلافة يا هذا رضي الله عنه

الفارس ولكن لا بد عليه السلام ن تعود معنا إلى بغداد فقد منعنا من عليه السلام ن نترك عليه السلام حداً ليمر في هذه الليلة رضي الله عنهما

الإمام: ويحك ليس مثلي يمنع .. إنما يمنع رجل عليه شارة الدنيا.

وعاد الفارس يضاحك رفاقه وهو يقول للإمام: اسمع يا هذا، لا

أسمح لك بالمرور حتى تنشدني أبيات من شعرك أو مما تحفظ.

الإمام: لا بأس فاسمع أنت ورفاقك:

منخرق الخفين يشكو الوِجَا

تنكبه أطراف مروٍ حِداد

شرده الخوف من أوطانه

كذاك من يكره حرّ الجِلاد

قد كان في الموت له راحة

والموت حتم في رقاب العباد

ثم ذهبا مسرعين يحمدان الله على خلاصهما.

(٢)

وفي قصر الخلافة جعل الخليفة يستعرض الغرباء واحداً تلو الآخر فيأمر الجنود أن يدخلوهم... وكلما طال الوقت اشتد بأسه وازداد غيظه حتى كان لا يدرك ما حوله من شدة الإعياء والتعب.

واشتد غضب الخليفة، فجعل يصب جام غضبه بالشتائم لمن حوله من الجنود والموالي.

هارون يا مسرور رضي الله عنهما عليه السلام ين الرجل الذي عليه السلام ودعته عندك رضي الله عنهم

الفارس سآتيك به اللحظة رضي الله عنهما

وما هي إلا لحظات حتى كان الرجل يقف بين يدي الخليفة.

هارون عليه السلام مثلك يخدع مثلي عليه السلام يها الأحمق رضي الله عنهما

الرجل والله ما خدعتك ولكن نقلت لك ما عليه السلام خفاه عنك غيري رضي الله عنهما

هارون إن لم تجده إلى صباح هذا اليوم لأفصلن رعليه السلام سك عن جسدك رضي الله عنهما

وفي هذه اللحظة دخل أحد الجنود.

هارون ما وراءك رضي الله عنهم رضي الله عنهما هل وجدتم يحيى بن عبد الله رضي الله عنهم

الجندي لقد وجدنا حمارين في عليه السلام حد الأنهار محذّقين كبغال البريد رضي الله عنها

هارون عليه السلام لم تجدوا عليه السلام صحاب الحمير رضي الله عنها

الجندي لم نجدهم ولم يدعيهم عليه السلام حد رضي الله عنها

هارون إذاً علي بقادة جنود المسالح رضي الله عنها

فلما دخل عليه قادة جنود المسالح التفت إليهم وقد احمر لونه وصار كتلةً من الغضب رضي الله عنها

هارون عليه السلام لم يمر عليكم بالأمس رجلان رضي الله عنهم

أطبق صمت غريب على المجلس واختفت فيه حتى الأنفاس.

هارون تكلموا عليه السلام يها الحمقى رضي الله عنها رضي الله عنها والله لئن لم تقولوا الحقيقة لأنتزعنها منكم بحد السيف وحر السياط رضي الله عنها رضي الله عنها على عليه السلام يكم مروا رضي الله عنهم

وهناك في نهاية المجلس انبعث صوت ضعيف من شخص كاد أن يتردى صريعاً لشدة الخوف: يا مولاي ..

لقد مر علينا أعرابيان في ثلث الليل الأخير.

هارون رضي الله عنه ما صفتهما يا هذا رضي الله عنه

الجندي رضي الله عنه لم عليه السلام تحقق من ملامحهما فالظلام كان شديداً رضي الله عنها

هارون رضي الله عنه وماذا قالا لك عليه السلام يها الأحمق رضي الله عنه

الجندي رضي الله عنه لقد جعلت عليه السلام حاورهما حتى علمت عليه السلام نه لا شأن لهما بالأمر رضي الله عنها رضي الله عنها فتركتهما لكنَّ عليه السلام حدهم عليه السلام نشدنا ثلاثة عليه السلام بيات رضي الله عنها

هارون رضي الله عنه عليه السلام حفظت الأبيات رضي الله عنه رضي الله عنها

الجندي رضي الله عنه نعم يا مولاي لقد حفظتها رضي الله عنها رضي الله عنها قال رضي الله عنه

منخرق الخفين يشكو الوجا

تنكبه أطراف مرو حداد

لم يكد يسمع الخليفة البيت الأول حتى كاد أن يترنح ويسقط، فقد بلغ به الغيظ والغضب منتهاه....فانحبست الكلمات في حلقه ولم

يستطع أن يترجم غضبه في كلمات.

وبعد لحظات من الصمت أشار هاورن إلى قائد المسالح وجنوده وقال لشرطته: خذوا هذا ومن معه واجلدوهم...واغربوا عن وجهي أيها الحمقى.

ودخل الخليفة إلى مقصورته وهو في حالة من التعب والإعياء بعد أن تيقن بأن يحيى بن عبد الله قد نجا رغم كل ما فعله من الاحتياطات ليظفر به.

واختفى يحيى بن عبد الله في بعض مناطق العراق بعد أن صار أمره حديث الخاص والعام .. وكلٌ يبغي ويحلم أن يعلم مكانه حتى ينال الجائزة والمرتبة الرفيعة عند الخليفة.

الباب الثاني

الفصل الأول

(١)

أدرك يحيى بن خالد البرمكي أن الخليفة لن يستقر له قرار حتى يجد يحيى بن عبد الله.

فهل يعينه على هذا الأمر؟

هل يكون غداً خصماً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لكي يرضي هارون؟.

ألا يكفي ما ارتكبه من الجرائم في سبيل إرضاء الخليفة؟

كان يقول في نفسه: لا.. لا.. لا يمكن أن أخضب يدي بدماء آل رسول الله، فوالله ما تعرض لهم صاحب سلطان إلا أزال الله ملكه وشتت الله جمعه .. فقد ذهب ملك آل أبي سفيان بقتل الحسين بن علي

وتلاهم بنو مروان بعد قتلهم زيداً بن علي وولده يحيى.

وجعل يحيى البرمكي يفكر طويلاً في طريقة يكون فيها رضاء ولي نعمته هارون الرشيد، ويكون فيها نجاته هو وأولاده من الدخول في سفك دم يحيى بن عبد الله وأصحابه.

لذلك جلس يحيى البرمكي مع ولديه الفضل وجعفر وأسر إليهما بالأمر ودار بينهم حوار طويل أدلى كل واحد منهم برأيه دون التوصل إلى شيء .. ثم قال الفضل:

- يا أبتِ لعل خروج يحيى من الدولة الإسلامية يجعل الخليفة يستقر ويطمئن، ففي فترة بقائه في الحبشة تناسى الخليفة أمره..

يحيى البرمكي عليه السلام حسنت يا ولدي رضي الله عنه فلعل هذا هو الحل رضي الله عنها

جعفر رضي الله عنه ولكن من يقنع يحيى بن عبد الله بهذا الأمر رضي الله عنهما بل من يجد يحيى بن عبد الله وهو متخفٍ لا يصل إليه عليه السلام حد رضي الله عنها

الفضل بن يحيى رضي الله عنهم دعوا هذا الأمر لي فأنا عليه السلام عرف

بعض من له معرفة بأمر يحيى رضي الله عنهما ولكن
إلى عليهم السلام ين تريده عليهم السلام ن يخرج يا عليهم السلام بي رضي الله عنهم
يحيى البرمكي رحمه الله لعله لو اختار ملك الترك عليهم السلام و ملك
الديلم كان في ذلك منجاة له ولنا رضي الله عنهما

* * *

كان الفضل بن يحيى يدرك أن يحيى بن عبد الله لم يبتعد كثيراً عن بغداد ...ولذلك أرسل إلى بعض من يعرف ميلهم إلى أهل البيت وطرح عليهم الأمر.

الفضل بن يحيى: يا قوم أنتم أهل دين وصلاح .. وتعرفون ما يضمر الخليفة ليحيى بن عبد الله، وأخاف أن يضطرنا الخليفة للدخول في أمر يحيى وإني أكره أن يكون لأهل بيتي يد في سفك دم رجل من أبناء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فلما أكمل يحيى كلامه التفت إليه رجل يكاد النور أن يتفجر من جبينه ثم قال: وماذا تريدنا أن نفعل أيها الأمير، وليس فينا من يعرف مكان يحيى بن عبد الله؟

الفضل ﷺ يا قوم إني إنْ ﷺ رسلت من يبحث عنه وعلم ﷺ نهم من جهة السلطان زاد في تخفيه وتنكره رضي الله عنهم ﷺ ما إذا ﷺ عطيتكم صكوك ﷺ مان له ولأصحابه وطلبتم منه ﷺ ن يرحل إلى ملك الديلم فلا ﷺ راه سيتخفى منكم رضي الله عنهم فمن منكم سيتولى القيام بهذه المهمة على ﷺ ن تعطوني عهود الله ومواثيقه ﷺ ن لا يعلم ﷺ حد بهذا الأمر و ﷺ عطيكم مثلها رضي الله عنها

فقال أحدهم: أنا من سيقوم بهذه المهمة.

فكتب الفضل بن يحيى بخط يده:

((إلى يحيى بن عبد الله من الفضل بن يحيى .. إني أحب أن أحدث بك عهداً وأخشى أن تبتلى بي وأبتلي بك، فكاتِبْ صاحب الديلم فإني قد كاتبته لك لتدخل في بلاده فتمتنع به)).

ثم كتب عدة صكوك لحاملها لا يعترضه معها أحد ... وحملها الرسول من ساعته وانطلق يبحث عن يحيى بن

عبد الله...فجعل ينتقل من بلد إلى بلد، ومن منطقة إلى منطقة يتلمس أخباره.

* * *

أما الإمام فقد أدرك أن الأمر قد أصبح خطيراً، وأن الجواسيس الذين كان قد زرعهم الخليفة في كل مكان لن يمكنوه من الاستقرار أو البقاء في أي مكان، فقرر أن يبحث عن ملجأ ذو مأمن من السلطة العباسية .. فكان أقرب شيء إلى بلاده ملك الترك المسمى (خاقان).

فكتب الإمام رسالة إلى ملك الترك (خاقان) وطلب منه الالتجاء إلى بلده هو وأصحابه وأرسلها مع أحد أصحابه الذين كان قد التحق به بعضهم على حدود مملكة الترك .. وبقي متخفياً ينتظر الجواب من ملك الترك.

وبينما هو يسامر أصحابه في بعض القرى، دخل عليه أحد أصحابه.

الرجل: يا مولاي، هذا رجل من شيعة العراق يبحث عنك، فهل آخذه إليك؟.

الإمام:احذر يارجل.!حتى تختبر حالـه، وتعلـم مـراده، فـلا يـؤمن أن يكون جاسوساً لبني العباس.

الرجل: لا عليك لن أدخله حتى أدرك مراده.

فخـرج الرجـل وجعـل يتتبـع رسـول الفـضل ويرقـب تـصرفاته . فعلـم أنـه مـن خُلـص زيديـة العـراق .. فأخـذه إلى الإمام وأدخله عليه.

فلما دخل على الإمام، استقبله الإمام فعانقـه وأجلـسه إلى جـواره، فبث إليه الرجل خبره، وأبان له مراده، وسلم إليه رسـالة الفـضل بـن يحيى.

فأطرق الإمام قليلاً، ثم رفع رأسه وقال: أبلـغ الفـضل مـني الـسلام وقـل لـه لقـد راسـلت ملـك الـترك وأنـا أنتظـر جوابـه ... فـإن اسـتقبلنا نـزلنا عنـده مـا شـاء الله حتـى

يحكم الله بيننا وبين قومنا بالحق وهو خير الحاكمين...وإن ردَّنا كاتبت ملك الديلم إن شاء الله.

ثم انصرف الرجل وعاد مسرعاً إلى بغداد ليبلغ الفضل بن يحيى البرمكي جواب يحيى بن عبد الله.

(٢)

كان خبر الإمام يحيى بن عبد الله قد تجاوز حدود الدولة الإسلامية...فاشتهر أمره في كل مكان.

وكان الكثير من الملوك يعرفون عظمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعظمة آل بيته وأن ما يحدث لهم من القتل والتشريد إنما هو محاولة لإبعادهم عن الخلافة التي نهبت منهم منذ زمن طويل...

لذلك ما إن وصلت رسالة يحيى بن عبد الله إلى (خاقان) حتى أسرع (خاقان) في ارسال الجواب.

وما هي إلا أيام حتى وصلت رسل ملك الترك إلى الإمام يحيى بن عبد الله حاملين إليه جواب (خاقان) على رسالته..

كانوا يحملون رسالة مختصرة العبارة بليغة المعنى: «ممالكي كلها لك وأنا بين يديك»

فأسرع الإمام بالرحيل قبل أن يُكشف أمره.

فلما وصل يحيى بن عبد الله إلى ملك الترك بالغ في إكرامه وإكرام أصحابه، وأنزلهم قريباً منه وأغدق عليهم النعم، وجعل يطيل الجلوس إلى الإمام تبركاً به لكونه من سلالة الأنبياء، فجعل الإمام يعرض عليه الإسلام صباحاً ومساء ويبصره بعظمة هذا الدين، فقد كان الإمام يعلم أن النظرة التي كان يفهمها الملوك عن الإسلام إنما كانت مستقاة من تصرفات الأمراء الذين

تربعوا على كرسي الخلافة، وليسوا أهلاً لذلك.

فلما أدرك (خاقان) عظمة الإسلام جعل يزيد من الإحسان إلى الإمام وأصحابه، ولكنه كان يتردد كثيراً في إظهار إسلامه.

* * *

ولم تمض مدة طويلة حتى اشتهر خبر الإمام ونزوله على (خاقان).

فسارع إليه أصحابه يحملون معهم رسائل من بايعه من أهل الأمصار الإسلامية.

وأسرع أحد الجمّالين الذين كان قد عرف بخبر يحيى ووجوده عند ملك الترك، بنقل الخبر إلى الخليفة.

الجمال مولاي لقد رأيت يحيى بن عبد الله مع جمع من صحابه يمشون في أمان عند ملك الترك خاقان

هارون وقد لمعت عيناه لفكرة خبيثة طلعت

في ر سه بلغ بيغفرالله لهم حيى الأمر ن يستعين عليَّ بالكافرين رحمه غفرالله غفرالله لهما رضي الله عنهما عليَّ بالنوفلي رضي الله عنه فهو عرف الناس بملك الترك رضي الله عنها

وفي هذه اللحظة دخل النوفلي.

هارون اسمع يا نوفلي عد نفسك للسفر إلى بلاد الترك رضي الله عنها و تِ ملكهم خاقان غفرالله له غفرالله لها واعرض عليه ن يسلم إليك يحيى بن عبد الله ومن معه وابذل له من الأموال ما طلب رضي الله عنه فإن بى ذلك فخوفه ما استطعت رضي الله عنها

النوفلي مرك يا مولاي رضي الله عنها فأمر لي من الهداياا بما خف حمله وغلي ثمنه غري بها

---

(١) كانت هذه العبارة تنبئ عن أسلوب خطير لتنفير الناس عن يحيى بن عبد الله رحمه غفرالله له غفرالله لها .

هارون رحمه الله اذهب إلى بيت المال وخذ منه ما عليه السلام ردت رضي الله عنها

* * *

كان يحيى بن عبد الله قد استطاع أن يقنع (خاقان) وبعض حَوارِيَّه بالدخول في الإسلام فحسن إسلامه مع إخفائهم للأمر عن عامة شعبهم.

واطمأن الإمام وأصحابه بإسلام (خاقان)، فلم يتركوا جهداً في دعوة الناس إلى الدخول في دين الإسلام وبينما هم منهمكون في دعوتهم ونشر دين الله بين أوساط المشركين...وصل رسول هارون.

دخل النوفلي عاصمة (خاقان) بقافلة تحمل كل غالٍ ونفيس، فليس شيء في الدنيا يسبي العقول إلا وقد حملت منه تلك القافلة.

استقرت القافلة على باب قصر (خاقان) ... ودخل النوفلي على الملك.

النوفلي رحمه الله عظيم الترك رحمه الله خاقان غفر الله له غفر الله لهما

رضي الله عنها رضي الله عنها لك من عليه السلام مير المؤمنين هارون ومن رسوله السلام رضي الله عنها

خاقان رضي الله عنهم عليه وعليكم السلام رضي الله عنها

النوفلي رضي الله عنهم هدية عليه السلام مير المؤمنين إليكم على باب القصر عليه السلام رجو عليه السلام ن تأمر بإدخالها رضي الله عنها

وبإشارة كان هناك من يتولى إدخال القافلة.

أحسن (خاقان) استقبال مبعوث الخليفة، وأكرمهم أعظم إكرام...وبعد أن استراح النوفلي ومن معه من السفر، أرسل (خاقان) في طلبه.

خاقان رضي الله عنهم عليه السلام سمعني عليه السلام يها الرسول رسالة الخليفة رضي الله عنها

النوفلي رضي الله عنهم الخليفة يلتمس منك عليه السلام ن تسلم إليه يحيى بن عبد الله ومن معه رضي الله عنهم فإنهم قد خرجوا على عليه السلام مره وشقوا عصا الطاعة عليه رضي الله عنها

خاقان رضي الله عنهم لا عليه السلام فعل رضي الله عنها رضي الله عنه ولا عليه السلام رى في ديني

الغدر والمكر رضي الله عنه وهو رجل من ولد نبيكم عالم زاهد رضي الله عنه قد عليه السلام تاني والتجأ وهرب منكم وهو عندي عزيز مكرم رضي الله عنها

النوفلي رضي الله عنهم إن الخليفة قد حملني في القافلة نفائس المشرق والمغرب رضي الله عنه هدية لك رجاء عليه السلام ن تنفذ له طلبه هذا رضي الله عنها

خاقان رضي الله عنهم لا حاجة لنا فيها فخذها وارجع إلى خليفتك فإنا لا نقبل الرشوة في ملكنا رضي الله عنها

وخرج النوفلي مغضباً، ورجع خائباً..كما رجع عمرو بن العاص في غابر الزمان من عند ملك الحبشة خائباً، وتشابهت المواقف واختلفت المظاهر، واشترك الجميع في خبث الضمائر.

* * *

استبشر الإمام وأصحابه بموقف (خاقان) وشكروا له ذلك .. إلاّ أن الإمام كان يكره أن يكون سبباً للحرب، فقد علم أن هارون لكي

يصل إليه لن يبالي في أن يدخل الناس في حرب مع ملك الترك.

فبقي أياماً ثم دخل على (خاقان) وكان قد أقام عنده سنتين وستة أشهر.

الإمام عليه السلام يا الملك رضي الله عنه لقد عليه السلام حسنت وفادتنا وتفضلت علينا كثيراً رضي الله عنهم فشكر الله لك هذا الفعل وكتب عليه السلام جرك وإني عليه السلام ستأذنك في الرحيل رضي الله عنه

خاقان رضي الله عنه بعد عليه السلام ن عليه السلام طرق يفكر لحظات وبدت على ملامحه علامات الحزن رضي الله عنهم لا رضي الله عنه رضي الله عنه لا تخرج يا يحيى ولك عندي ما تريد رضي الله عنه

الإمام رضي الله عنهم لا يسعني المقام في ديني رضي الله عنهم وقدرجع إليَّ دعاتي وثقاتي رضي الله عنهم وقد بايعني عليه السلام هل المشرقين والعراقين وخراسان رضي الله عنهم ووردت كتبهم علي فجزاك الله عنا عليه السلام لف خير رضي الله عنه

وأعَدَّ الإمام عدته للخروج من بلاد الترك والرجوع إلى الديار

الإسلامية.

وخرج الملك وحاشيته لوداعهم ودموع الفراق تبلل وجوههم فقد أحبهم وأحبوه...ولكن واجب الدين يُقدم على العواطف...!

(٣)

كانت بيعة الإمام يحيى بن عبد الله قد شملت معظم البلاد الإسلامية، فأمّل يحيى أن يجد من ينصره لتحرير الأمة من الفساد.

فدخل الديار الإسلامية وواعد الناس، وجعل يحثهم على الوفاء ببيعتهم ولكنه لم يجد في الناس عزماً.

فلم يتول مفسدٌ قوماً حتى يكونوا أكثر منه فساداً...أو كما قيل: (كيفما تكونوا يول عليكم).

فاجتمع إليه بعض من كان قد بايعه، فلم يجد فيهم من يثق بولائه وإخلاصه إلا قلة منهم.

فقد التحق به ابنٌ للحسن بن صالح صاحب عيسى بن زيد، فكان

كثير المخالفة له قليل الإخلاص معه، بل جعل يؤلب عليه أصحابه.

فقد أرسل أحد الشيعة إلى الإمام ببعض الطعام ... فخشي الإمام إن انتظر حتى حضور بقية أصحابه أن يفسد الطعام...فقرّب الطعام للحاضرين منهم.

فدخل ابن الحسن بن صالح في إثر ذلك، فالتفت إلى الإمام في سخرية قائلاً:

- ما هذه الأثرة!! أتأكل أنت وبعض أصحابك دون بعض؟

الإمام هذه هدية هديت إلي وليست من الفيء الذي لا يجوز هذا فيه

ابن الحسن لا ولكن لو وليت هذا الأمر لاستأثرت ولم تعدل

فلم يجبه الإمام .. وأعرض عن كلامه.

وجعل بعض أصحاب الإمام الخُلّص يتّبع أمر ابن الحسن بن صالح ويحاول أن يقدم له النصيحة وينهاه عن الجرأة والمجافاة للإمام.

فلما علم الإمام دعا ذلك الرجل وقال له:

- يا أخي .. دع هذا الرجل، وادع لـه بالـصلاح بـدل أن تـدخل معـه في جدل قد يجرح بعضكم الآخر.

الرجل يا مولاي إن الرجل صاحب مذهبٍ ينافي ما نت ونحن عليه

الإمام: السعي لإصلاح ما نحن فيه، وإخراج أمة الإسلام ممـا تعانيـه، أهم من كل أمر.

الرجل: حتى ولو كان يقول بتفضيل أبي بكر وعمـر في سـت سـنوات بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآلـه وسـلم ثـم يكفـرهم بعـد ذلك، ويشرب النبيذ، ويمسح على الخفين؟!

الإمام لا ظنه يعتقد هذه العقيدة فتثبت يا رجل

الرجل ولكني قطع بذلك واسأل غيري ممن عرفه

فجعل الإمام يتتبع الأمر حتى تيقن من صدق ما قاله الرجل...

ولما أقيمت الصلاة في أحد الأيام .. وانشغل الإمام بطهوره، أسرع ابن الحسن بن صالح فتقدم الناس وصلى بهم، ودخل الإمـام المسجد وصلى منفرداً.

فلما انتهى ابن الحسن من الصلاة بالناس تحوّل إليهم ثم قال:

رضي الله عنهما علام نقتل عليهم السلام نفسنا مع رجل لا يرى الصلاة معنا رضي الله عنهما رضي الله عنهما ونحن عنده في حال من لا يرضى مذهبه رضي الله عنهم رحمهم الله

وجعل الإمام ينظر في حال أصحابه بعد هذه الأحداث. فوجدهم كثيري الاعتراض لا يكادون أن يجمعوا على رأي ... فمعظم مـن معـه لا يريدون بجهادهم وجه الله لذلك كره أن يخرج بمثل هؤلاء، بعد أن استشعر من الكثير منهم عدم الإخلاص له وللمبادئ التي خـرج مـن أجلها.

وتفرق بعضهم عنه حتى لم يبـق معـه إلا سـبعون رجـلاً .. فجعـل يبحث له عن أنصار يعينونه على أمره، فلم يجد وخشي أن يخـرج بتلـك

المجموعة القليلة، فتسفك دماؤهم دون جدوى ...فجعل يتنقل متخفياً ومتنكراً.

ولكنه كان يشعر أن العيون ترقبه .. فتنكُّره يزيد من فضول الناس.. وأدرك أن لا بقاء له في هذه البلاد المترامية الأطراف.

فجعل ينتقل من بلد إلى بلد بتلك الصكوك المكتوبة بخط الفضل بن يحيى فلا يتعرّض له أحد.

الفصل الثاني

كان الخليفة هارون الملقب بالرشيد يبحث عما يدخل إلى قلبه الفرحة والسرور لكي يتناسى أمر يحيى بن عبد الله.

فجعل تارة يبحث بين الإماء عن ذات الحسن والجمال الذي يرحل به حسنها من عالم الرعب والقلق الذي يشعر به في أعماقه، وتارة يغرق في بحور الشرب والغناء والليالي الساهرة مع نغمات العود وصوت المزمار وأنواع الرقصات وأصحاب الفكاهة ومساجلات الشعراء.

ولكن هيهات أن يكون في كل هذا ما يشفي الغليل.

فهو يشعر دوماً أن ملكه سيسلب منه في أي لحظة.

يشعر أن يحيى بن عبد الله قادم ليسلبه ملكه ويأخذ بثأر آبائه وإخوانه ..لذلك لم يكن ليشفي القلب المريض إلا رأس يحيى بن عبد الله.

فقد خرج في أحد الأيام بعد أن غادر يحيى بن عبد الله بـلاد الـترك ليروح عن نفسه.

فبينما هو سائر مع حرسه وخدمـه .. عـرض لـه رجـل في الطريـق وجعل يناديه.

الرجل يا أمير المؤمنين نصيحة

هارون وهو يلتفت إلى هرثمة: اسمعه ما يقول.

الرجل إنها سر من أسرار الخلافة

هارون ابق معي حتى طلبك

فلما عاد هارون في وقت الظهيرة.

هارون أين الرجل صاحب النصيحة

الرجل خلني فالتفت الرشيد إلى ابنيه فخرجا

وبقي بعض ثقاته، فنظر الرجل إليهم كأنه يريد خروجهم.

هارون تنحيا عنا ثم قبل على

الرجل قائل أمرهم

رضي الله عنهما ماذا عندك رحمه الله

الرجل رضي الله عنهم على عليه السلام ن تؤمنني من الأحمر والأسود رحمه الله غفر الله لنا غفر الله لهما رضي الله عنهما

هارون رضي الله عنهم نعم رضي الله عنهما رضي الله عنهما و عليه السلام حسن إليك رضي الله عنهما

الرجل رضي الله عنهم كنت البارحة في خانٍ من خانات حلوان رضي الله عنهما رضي الله عنهما فإذا عليه السلام نا بيحيى بن عبد الله في دراعة صوفٍ غليظة وكساء صوف عليه السلام حمر غليظ رضي الله عنهم ومعه جماعة ينغفر الله لهم زلون إذا نغفر الله لهم زل و يرتحلون إذا رحل ويكونون معه ناحية فيوهمون من ر عليهم السلام هم عليه السلام نهم لا يعرفونه وهم عليه السلام عوانه مع كل واحد منهم منشور بياض يؤمن به إن عرض له رضي الله عنهما

---

(١) يقصد السوط والسيف

هارون عليه السلام وتعرف يحيى رضي الله عنه

الرجل عليه السلام كنت عليه السلام عرفه قديم رضي الله عنه وذاك الذي حقق معرفتي له بالأمس رضي الله عنها

هارون عليه السلام فصفه لي رضي الله عنها

الرجل عليه السلام مربوع رضي الله عنه عليه السلام سمر رضي الله عنه حلو السمرة رضي الله عنه عليه السلام جلح رضي الله عنه حسن العينين رضي الله عنه عظيم البطن رضي الله عنها

هارون: هو ذاك، فما سمعته يقول؟

الرجل: ما سمعته يقول شيئاً، غير أني رأيته ورأيت غلاماً له أعرفه لما حضر وقت صلاته أتاه بثوب غسيل.. فألقاه في عنقه ونزع جبته الصوف ليغسلها.. فلما كان بعد الزوال صلى صلاة ظننتها العصر أطال في الأولتين وحذف الآخرتين.

هارون -وقد أقبل على الرجل مستبشراً فرحاً: لله أبوك، ما أجود ما حفظت تلك صلاة العصر وذلك وقتها عند القوم، أحسن الله جزاءك وشكر سعيك .. من أنت؟ وما أصلك؟

الرجل: أنا رجل من أبنـاء هـذه الـبلاد، وأصـلي مَـرْو ومنـــزلي مدينـة السلام (بغداد).

أطرق هارون ملياً يفكر في خبر الرجل، وجعل يقول في نفسه: إن مثل تلك الصكوك لا يمكن أن تكون بمثل هـذه المنـزلة بحيث ترد كل من اعترضهم إلا أن تكون صادرة من قصر الخلافة، وهذا يعني أن دعوة يحيى قد بلغت حتى قصري، وأن في أقرب الناس لي من يدين بالولاء ليحيى، فإذا استشعر أحدهم أني قد علمت، عاجلوني قبل إعداد العدة لهم أو لعل بعضهم يشك في الأمر، فيقبض على هذا الرجل فيرغمه على إخباره بما أسره إليّ، لا بد من طريقة أصرف بها الأنظار عن هذا الرجل، لا بد أن أظهر أن خبره ليس بمهم..

ثم رفع هارون رأسه ونظر إلى الرجل الذي كان قد

وقف أمامه لا يتكلم.

هارون: كيف احتمالك لمكروه مني تمتحن به في طاعتي؟

الرجل: أبلغ من ذلك حيث أَحب أمير المؤمنين.

هارون: كن بمكانك حتى أرجع.

دخل هارون إلى حجرة قريبة، ثم خرج فألقى إلى الرجل بألف دينار فأخذها الرجل وضم عليها ثوبه..

هارون: خذها يا رجل، ولا تحدث أحداً بما أعطيتك، ودعني وما أدبر فيك.

ثم نادى هارون على غلمانه.. فخرج إليه ثلاثة من خلص خدمه.

هارون: اصفعوا ابن اللخناء.

وصفعوه مائة مرة ثم اختفى الرجل وظن الناس أنه لم يأت من الأخبار بشيء ذي بال.

أدرك هارون أن أمر يحيى قد بلغ ذروته ووصل إلى كبار أهل

دولتـه، فلـم يثـق بأحـد، وعـزم عـلى نفـسه أن يحـدد مـصدر تلـك الصكوك...فأسرع في طلب مـسرور الـذي كـان محـط ثقتـه، فحـضر في الحال.

هارون: اسمع يا مسرور، اختر مجموعـة مـن أشـد الفرسـان إخلاصـاً واذهب إلى خان حلوان .. فإذا بلغت ذلك المكان فأتني بيحيى بـن عبد الله وأصحابه، وإن لم تجدهم، فاسأل عن أي طريقٍ سلكوا ولا تعد إلا بهم.

مسرور عليه السلام مر مول اي رضي الله عنها رضي الله عنها رضي الله عنها ثم تراجع خطوات إلى الوراء رضي الله عنه وانصرف من سراعته رضي الله عنها

* * *

لم يدرك الإمام وأتباعه تلك العين التي كانت ترقبهم، ولذلك لم يُجرِ الإمام أي تغيير في خطة سيره.

وقبل طلوع الفجر غادر الخان قبل أن يستيقظ أحد من نومه...فقد علّمته حياة الخطر والمطاردة والتشرد أن يكون على حذر.

وسلك الطريق المعتادة للمسافرين عند انطلاقه، ولكن الخان لم يخل من عين ساهرة أدركت ذلك الذي تحرك في الظلام.

وقبل طلوع الشمس كان مسرور قد دخل مع جماعة من خيرة الفرسان إلى الخان .. فجعل يتلمس الأخبار، فلم يجد من يدله .. فكشف عن شخصيته.

مسرور رضي الله عنه نا مسرور خادم عليه السلام مير المؤمنين رضي الله عنهم لن يتحرك عليه السلام حد من الخان حتى تدلوني على الطريق التي سلكها يحيى بن عبد الله وعليه السلام صحابه رضي الله عنهما

عليه السلام حدهم رضي الله عنهم عهدي بذلك الرجل المتنكر البارحة ولم عليه السلام ستيقظ إلا وقد غادر الخان رضي الله عنهما

صاحب الخان رضي الله عنهم لقد عليه السلام دى بعض الرجال الذين باتوا في الخان ما عليهم ليلة البارحة رضي الله عنهما

رجل عليه السلام **آخر** رضي الله عنهم عليه السلام نا عليه السلام خبرك عليه السلام ي طريق سلكوا رضي الله عنهم لقد قمت لقضاء بعض حاجتي قبيل الفجر رضي الله عنهم فلمست بعض حركة رضي الله عنهما فنظرت من

نافذة الخان فرﷺيت جماعة من الناس يتجهون نحو الجنوبرضي الله عنه ولاﷺعتقد إلاﷺنهم من تقصدرضي الله عنها

انطلق مسرور ومن معه كالسهام ليتبعوا الإمام ومن معه.

وبالفعل كان الإمام قد سلك تلك الطريق، ولكنه لم يمض فيها إلا مدة قصيرة، ثم نـزل فصلى واستخار الله وشاور أصحابه ما بين الاستمرار في التنقل في البلاد الإسلامية مع مافي ذلك من الخطر أوالخروج منها.

فاستقر رأيهم على الخروج من البلاد الإسلامية والدخول إلى ملك الديلم، فعكسوا وجهتهم من الجنوب إلى الشمال، وسلكوا طريقاً قريباً من طريق المسافرين فجعلوا يرون المسافرين ولا يرونهم..

فلم تطلع الشمس ويكمل نورها وتبث ضوءها إلا وقد رأوا كوكبة من الفرسان يتخطون جموع المسافرين وأعينهم ترقب الوجوه.

فعرف الإمام أنهم متبوعون، وأن أمرهم قد كشف.. وعرف مسروراً.

فجعل الإمام يحث أصحابه على السير، مخافة أن يأتي من يُخبر مسروراً أنهم قد غيروا وجهة سفرهم.

* * *

عاد مسرور خائباً لم يظفر بما يرضي مولاه، فقد تمكن يحيى من النجاة، وللمرة الثالثة...

وعاد الخوف والفزع من الغد المجهول يخيم على قلب الخليفة، فقد أصبح يحيى رعباً ينغص على الخليفة كل راحة.

ولذلك كثّف من جواسيسه .. لكن هذه المرة ليس للبحث عن يحيى فقط، بل جعل على كل رجل في قصره عيناً ترقب كل تصرفاته.

حتى وضع الرقباء على [illegible] وأولاده... فالشك كان قد ملأ صدره .. فأصبح لا يثق إلا بنفسه.

الفصل الثالث

(١)

ضاق الخناق واشتد الطلب وصغرت البلاد رغم اتساعها، وصار يحيى بن عبد الله لا يأمن على نفسه وعلى أصحابه لا ليلاً ولا نهاراً.

ونودي في الأسواق برئت الذمة من كل من يؤوي يحيى بن عبدالله.

وبولغ في الجوائز لمن دل عليه...فصار التنقل أشبه بالمستحيل.

لم يستطع يحيى بن عبد الله أن يبلغ الديلم وهو المكان الذي كان يؤمل أن يجد فيه الأمان.

وكان يحيى أقرب شيء إلى ملك طبرستان (شروين بن سرخاب)، فرأى أن يراسله.

الإمام يحيى رضي الله عنهما وهو يلتفت إلى عليه السلام صحابه رضي الله عنهم من منكم يكون رسولي إلى ملك طبرستان رضي الله عنهم

عليه السلام حدهم رضي الله عنهم عليه السلام نا يا مولاي رضي الله عنهم ولكن عليه السلام ليس مقصدنا هو رحمه الله جستان غفر الله له غفر الله لهما ملك الديلم رضي الله عنهم

الإمام: أخاف أن لا نبلغه فقد اشتد علينا الطلب.

الرجل: فماذا أقول لشروين؟

الإمام- وهو يدفع إلى صاحبه رسالة قد أعدها: سلم إليه هذه الرسالة.

* * *

انطلق الرجل من ساعته يسارع في الخطى ويطوي الجبال والسهول والوديان.

وما هي إلا أيام حتى وصل إلى الملك (شرويـن) فأحسن الملك استقباله وأجلسه إلى جواره.

الرجل ﷺ نا رسول يحيى بن عبد الله ابن رسول الله رضي الله عنه وهو يبلغك السلام رضي الله عنه وهذه رسالته إليك رضي الله عنها

إستلم (شروين) الرسالة ثم سلّمها إلى موظف في ديوانه ليقرأها عليه، فإذا بها:

((من يحيى بن عبد الله إلى (شروين) ملك طبرستان، سلام عليكم، لقد اشتد بنا الطلب وضاقت بنا الأرض، ونحن بحاجة إلى وطن آمن، فآونا أنا وأصحابي ثلاث سنين، حتى يقضي الله في أمرنا ما هو قاض)).

أطرق (شروين) يفكر لحظة وهو يقلب الأمر، فقد سمع عن يحيى بن عبد الله الكثير وعرف دينه وتقواه.

فأخذ قرطاساً ومحبرة ثم كتب:

((من شروين بن سرخاب ملك طبرستان إلى يحيى بن عبد الله، سلام عليكم .. وصلتني رسالتكم وأنا آويك الدهر كله، ولكني أدلك على موضع هو أمنع من موضعي .. فانزل عند جستان ملك الديلم فإن له أجبل بين سهول طبرستان، ومن وراء ذلك جبال

دنباوند.

فمتى نـزلت العساكر بها وحـاصروني لم آمـن أن يظفـروا ببغيـتهم ويجدوا من أهل بيتي من يدلهم على عورتي، فلا آمن الفضيحة، ولكني أسير معكم إلى جستان ملك الديلم وأسأله أن يـؤويكم وأرجـو أن لا يمتنع علينا، وجبالي متصلة بجباله، فنكون جميعاً يداً على منعـه، فأقبـل عليّ إن رأيت ذلك)).

فلما وصـلت الرسـالة إلى الإمـام أسرع في الـدخول إلى طبرسـتان لينجو بنفسه وعقيدته وأصحابه..

فلما بلغوا إلى (شروين) ... صحبهم إلى ملك الديلم.

فلما وصلوا إلى ملك الديلم (جستان) سنة ١٧٦هـ أظهر من السرور بقدومهم الشيء العظيم وأنـزلهم أحسن المنازل وأقربها إليه.

جستان: أين كنت يا يحيى، لقد انتظرنا قدومك منذ زمن، فقـد راسـلنا في أمرك الفضل بن يحيى قبل سنوات.

الإمام لقد بقينا فيما مضى نازلين على ملك الترك خاقان إلى أن هيأ الله لنا

السفر إليكم رضي الله عنهم فقدمنا فنشكركم على حسن استقبالكم رضي الله عنها

جستان رضي الله عنهم هذه مملتكي عش فيها بأمان عليهم السلام نت وجميع صحابك رضي الله عنها عليهم السلام

الإمام رضي الله عنهم نشكرك ونعدك عليهم السلام ن نكون جيران خير إن شاء الله رضي الله عنها

* * *

لم يكن بقاء الإمام في تلك البلاد طلباً للراحة، بل أملاً في أن يجد فيها من يدعوه إلى الإسلام، وينصره على نشر دين الله.

فقد دخل عليه أحد أصحابه بعد أن ضاق بتلك البلاد وهزه الشوق إلى الأهل والوطن.

الرجل: يا مولاي .. إلى متى نبقى في هذه البلاد؟هلا خرجنا منها علنا نلقى لنا ناصراً يعيننا على أولئك الطغاة، فيكتب الله لنا أن نعود إلى أهلنا؟

الإمام: يا أخي لقد أخبرني حبيبي -يعني جعفر الصادق- فيما يرويه عن آبائه أن لنا في هذه البلاد راية[1]، وأرجو أن تكون معي ومعكم إن شاء الله فاصبر يا أخي.

وجعل الإمام يشرح لكل من يتمكن من لقائه والأُنس إليه معالم الدين والإسلام، ويحبب إليه شريعة سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ويحاول أن يحسن بعض تلك الصور التي قد ارتسمت في أذهان الناس في تلك البلاد عن الإسلام.

فاستجاب له بعض تلك الشخصيات القريبة من الملك، فأسلم منهم جمع كثير. وأسروا إسلامهم حتى لا يعلم الناس بالأمر.

(٢)

لم تكن دولة جستان تخلو من عين لهارون ترجو أن تنال الجائزة، فلم

---

(١) كانت هذه الراية للحسن بن زيد (من أولاد الحسن) ثم لأخيه محمد، ثم للناصر الأطروش (عليه السلام) الذي أدخل الإسلام إلى الجيل والديلم وخراسان وطبرستان وامتدت دولته أكثر من عشرين عاماً حتى استشهد رضوان الله عليه سنة ٣١٦هـ.

يكد يمضي العام على دخول يحيى بن عبد الله مع أصحابه إلى جبال الديلم، حتى كان الوشاة والجواسيس يسعون بخبره إلى قصر هارون الرشيد..

فلما وصل الخبر إلى هارون ضاقت عليه الأرض، وانتابه غمٌ شديد..وترك النساء وعاف الشراب، وخلع الشفوف، ولبس الصوف..وجعل يفكر في الأمر .. لا يهدأ له بال ولا يستقر له قرار..

وأدرك يحيى البرمكي وأولاده حال الخليفة، وجعل كل واحد منهم يفكر في أي وسيلة يمكن عملها لإنقاذ الخليفة من هذه المأساة التي حلت به.

فتلمسوا له الشعراء وأصحاب الحكايات والنوادر وحسان الإماء...ولكن هيهات أن يجد الخليفة في ذلك ما يشفي غليله.

وفي أحد الأيام كان يجتمع إليه قواده ووزراؤه وقضاته،

وهو واجم لا يكاد يتكلم يفكر في البحث عن وسيلة تمكنه من القبض على يحيى بن عبد الله وإحضاره إليه، وجعل يشاورهم في الأمر .. فكان أول المتكلمين قائد الجيش (هرثمة).

هرثمة يا عليه السلام مير المؤمنين رضي الله عنه إن جيشنا ذو عدد وعدة رضي الله عنه فإن رعليه السلام يت عليه السلام ن نغزو بلاد الديلم رضي الله عنه ونأخذ يحيى بن عبد الله منهم عنوة رضي الله عنه فنحن طوع عليه السلام مرك يا مولاي رضي الله عنها

وقبل أن يجيب الخليفة.. كان صوت يحيى البرمكي أسرع إلى الإجابة.

يحيى البرمكي: يا هرثمة، إن الدولة لا تحتمل الدخول في حرب مع الديلم.

هارون: إذاً فما ترى يا يحيى؟ هل تريد أن ننتظر يحيى بن عبد الله حتى يكثر أتباعه ويقبل علينا بأهل الديلم ؟

يحيى البرمكي- وقد بدا عليه شيء من الارتباك: لا يـا مـولاي، ولكـن لعل لأمير المؤمنين رأي أرجح ونظر أعمق، فالحرب لا تجنـي عـلى الشعوب إلا الخراب، ومولاي الخليفة يعلم أن الروم يتربصون بنـا الدوائر.

أطرق هارون ملياً وغـرق في تفكـير عميـق لعلـه يجـد رأيـاً غـير الحرب...ثم رفع رأسه ونظر إلى يحيـى البرمكـي قـائلاً: ادع لي ولـدك الفضل يا يحيى.

أدرك يحيى بن خالد البرمكي أن الخليفة قد بنى على أمـر يريـد مـن ولده الفضل تنفيذه فقام من ساعته في تثاقـل وتأهـب للخـروج وهـو يقول: أمر مولاي .. أمر مولاي ..

* * *

أقبل يحيى على ولده الفضل وقد بدت على ملامحه علامات الخـوف والتردد.

الفضل رضي الله عنه ما بك يا أبي عليه السلام هل حدث شيء رضي الله عنه

يحيى البرمكي رضي الله عنه لم يحدث شيء رضي الله عنه ولكني عليه السلام خاف

عليهالسلام ن يبتلينا الخليفة بدم يحيى بن عبد الله رضي الله عنهما

الفضل: ماذا تقصد يا أبي؟

يحيى البرمكي رضي الله عنه لقد عليهالسلام رسلني الخليفة لأدعوك إليه ولا عليهالسلام ظنه إلا سيرسلك على رعليهالسلام س جيش لحرب ملك الديلم رضي الله عنهم وعليهالسلام خذ يحيى بن عبد الله من عنده عنوة رضي الله عنهما

الفضل رضي الله عنه الخليفة عليهالسلام كبر عقل أرضي الله عنهم وعليهالسلام صوب رعليهالسلام يأ من عليهالسلام ن يفتح لنا حرب أ مع الديلم رضي الله عنهما

ثم استأذن أباه وانطلق إلى مجلس الخليفة لينظر ما الأمر...

وحين وصل إلى دار الخلافة لفت انتباهه حركة الجنود وكثرة الذهاب والإياب...ودخل الفضل بن يحيى إلى المجلس.

الفضل رضي الله عنه السلام على عليهالسلام مير المؤمنين رضي الله عنهم خادمك وربيب نعمتك طوع عليهالسلام مرك رضي الله عنهما

هارون رضي الله عنه اسمع يا فضل رضي الله عنهم لقد عليهالسلام مرت بجمع سبعين عليهالسلام لفأ من خيرة رجال ن ارضي الله عنهم وعليهالسلام مرت عليهالسلام ن

يصرف من بيت المال خمسين عليه السلام لف عليه السلام لف رضي الله عنه وجمعت جميع قوادي ومن له رعليه السلامي ومشورة رضي الله عنه وهذا عليه السلام مر بتوليتك الجيل والري وكورها وجرجان وقومس ودنباوند والريان رضي الله عنه واختصيتك عليه السلام ن تخرج على رعليه السلام س هؤلاء فلا تترك طريقة يمكن لك عليه السلام ن تستميل بها رحمة الله جستان غفر الله لهما وحاشيته وعليه السلام نصاره إلى تسليم يحيى بن عبد الله إلا فعلته رضي الله عنه وهذه مفاتيح بيت مال المسلمين خذ منها ما شئت رضي الله عنه وانطلق السراعة ولا تعد إليَّ إلاَّ بيحيى بن عبد الله رضي الله عنهما

لم يجد الفضل بن يحيى له طريقاً أو مخرجاً للهروب من الأمر، فاستأذن للخروج وهو يقول: لن يكون إلا ما يسر أمير المؤمنين إن شاء الله..

ثم أسرع إلى أبيه يلتمس منه الرأي، فلم يجد عنده مخرجاً من تنفيذ أمر الخليفة...ولذلك حمل متاعه واستعد للخروج..

(٣)

وفي يوم حافل خرج الخليفة لتوديع الفضل بن يحيى، فاستعرض الجيش فأعجب بما رأى وأمَّلَ خيراً.

ثم خلع على الفضل بن يحيى وجميع القواد والجند خِلَعاً سخية، وانطلق بالجيش ليستقر في أقصى البلاد الإسلامية على حدود الجيل والديلم.

وانطلقت الجاسوسية العباسية لتخترق الحدود لتنقل أخباراً مفصلة عن الشخصيات ذات التأثير في الدولة وأصحاب المكانة في نفس الملك.

وبعد أن حصل الفضل بن يحيى على معلومات كاملة عن دولة الروم وتعرّف على مصادر التأثير في الدولة وأصحاب القرار في مملكة الديلم، بدأ جمعٌ من ذوي التأثير وأصحاب الخبرة في مخاطبة واستقطاب الرجال يحملون معهم نفائس المشرق وأجمل ما يمكن أن يذكر من الإماء والجواري يعبرون الحدود ليصل كل منهم إلى شخصٍ بعينه.

وبعد أن ضمن الفضل بن يحيى كل من له تأثير على الملك جستان جمع من الأموال والنفائس من الملابس والجواهر وغيرها الشئ العظيم .. ووجه رسله إلى (جستان) بهذا الخير الكثير.. لا يطلبون من الملك

مقابل ذلك كله إلا تسليم يحيى بن عبد الله ومن معه.

* * *

وبعد أن وصل رسل الفضل بن يحيى ووقفوا بين يـدي (جـستان) وسلموا ما بأيديهم من الهدايا.

فاستقبلهم جستان وأحسن إليهم وسر سروراً عظـيماً بـما رأى مـن الهدايا.

كبير رسل الفضل بن يحيى رضي الله عنهما هذه هدية الخليفة عليه السلام مير المؤمنين هارون الرشيد لجلالة ملك الديلم جستان تعبيراً عن التعاون والتكافل بين البلدين رضي الله عنهما

وفي اليوم الثاني استعد وفد الفضل بن يحيى للرحيل، وقبل الرحيل دخل الوفد على جستان لوداعه.

كبير رسل الفضل رضي الله عنهما الخليفة يلتمس منك عليه السلام يها الملك عليه السلام ن تسلم له يحيى بن عبد الله وعليه السلام صحابه رضي الله عنهم فإنه يخاف عليه السلام ن يشق عصا المسلمين ويزلزل ملكه رضي الله عنهم والخليفة يضمن لك إن سلمت إليه يحيى عليه السلام ن يعطيك في كل عام عليه السلام لف درهم

وعليهالسلام لف ثوب خز وعليهالسلام لف ثوب حرير وديباج رضي الله عنها

جستان رضي الله عنهم قد عليهالسلام منّت يحيى في بلدي وقد صار له في دولتي عليهالسلام نصار ومحبون رضي الله عنها رضي الله عنها وعليهالسلام خاف من الفتنة ولا عليهالسلام حب عليهالسلام ن انقض عهداً عليهالسلام برمته ولكن فلتبق الرسل هنا حتى انظر في الأمر رضي الله عنها

* * *

جمع (جستان) وجوه مملكته وشاورهم في الأمر، بشأن طلب خليفة المسلمين..

كانت حاشية الملك وأصحاب الرأي في مملكته على رأيين متضادين:

إما موافق يؤيد تسليم يحيى وأصحابه وإخراجهم من بلاد الديلم..

أو معارض يعارض التسليم ويعتبره خيانة..

ومعظم من كانوا يعارضون التسليم كانوا ممن اسلموا وتمكن نور الإسلام من قلوبهم..

جستان رضي الله عنهم قد علمتم ما عليهالسلام قبل به رسل المسلمين من كل غال ونفيس من خيرات بلادهم رضي الله عنهم وما جمعوا من

الجيوش على حدودن رضي الله عنه وما هم قد طلبوا منا عليه السلام ن نسلم إليهم يحيى بن عبد الله وعليه السلام صحابه فما تقولون رضي الله عنهم

عليه السلام حدهم رضي الله عنهم يا مولاي رضي الله عنه لقد عليه السلام عطيت يحيى وعليه السلام صحابه العهد والأمان رضي الله عنه ولو عليه السلام عُطيت الدنيا على عليه السلام ن تنقض عهداً ما كان لك في ذلك خير رضي الله عنها

عليه السلام الآخرون رضي الله عنهم يا مولاي رضي الله عنه هو رجلٌ منهم لا ندري عليه السلام هو مسيء عليه السلام م مصلح رضي الله عنه وعليه السلام هله عليه السلام ولى به رضي الله عنه فلو عليه السلام ن رجلاً من عليه السلام هل مملكتك خرج عليك ونازعك ملكك ثم هرب إليهم فآووه ما سرك ذلك منهم رضي الله عنها

ثالث: يا مولاي .. إن بقاء الملك مقترناً ببقاء الوفاء، فإذا ذهب الوفاء بالعهد ذهب الملك وصرت مضرب مثل بين الملوك، يقولون: (نقض عهده من أجل الدنيا).

أطـرق الملـك يفكـر قلـيلاً، ثـم رفـع رأسـه والتفـت إلى الجنود قائلاً: أدخلوا رسل المسلمين.

فلما صاروا بين يديه قال لهم:

رضي الله عنهما اذهبوا إلى ملككم وعليه السلام بلغوه عني السلام والشكر رضي الله عنه وعليه السلام خبروه عليه السلام ني قد عليه السلام عطيت يحيى عهوداً وعليه السلام منته رضي الله عنه ولن عليه السلام نقض عهدي وعليه السلام ماني ولو عليه السلام عطاني ما في الأرض رضي الله عنهما

* * *

وصـلت الرسـل إلى الفـضل، وأخـبروه بمـا أجـابهم (جستان) ... فداخله شيء من السرور، فقد ظن أن هارون قـد ييـأس وينسى أمـر يحيى، إذا علـم بإجابـة (جستان)، وبذا يسلم الفضل من الاشتراك في دمه.

ولذلك أسرع الفضل في إنفـاذ الرسـل إلى الخليفـة لينقلـوا لـه مـا سمعوا من (جستان).

فدخلت الرسل على هارون وهو في مجلسه.

هارون رضي الله عنه ما وراءكم رضي الله عنهم ما عليه السلام خبار الفضل بن يحيى رضي الله عنهم

- هو بخير حال هو وجميع من معه، ولا يسأل إلا عن أخباركم، وقد بعثَنا إلى (جستان) بالهدايا وبطلبكم.. فلما نقلنا إليه إجابه (جستان) أمرنا بالمسير إليكم لنخبركم بجوابه.

هارون رضي الله عنه وماذا كان جوابه رضي الله عنهم

كبير الرسل: لقد شكر لكم ما أرسلتم إليه، واعتذر عن تسليم يحيى وأصحابه، وقال: إنه قد أعطاه الأمان، ولن ينقض عهده ولو أعطي الدنيا كلها.

ضاق المجلس بهارون، وضاق هارون بكل من حوله وتغير لون وجهه، ثم التفت إلى الرسل قائلاً:

رضي الله عنهما لعل الفضل لم يعطه من الهدايا ما يغريه لإجابة طلبنا رضي الله عنهم

كبير الرسل: يا مولاي، لقد حمَّلَنا الفضل بن يحيى من النفائس ما يعجز عن عده ووصفه.

هارون: عودوا من ساعتكم إلى الفضل بن يحيى، وأبلغوه عني السلام، واحملوا إليه ما قد أعديت لكم من الأموال، وقولوا له: لا ييأس من (جستان) ويبالغ في الإحسان إليه وإلى من حوله من الحاشية والأعوان وأهل الرأي في مملكته، وقولوا له: فلينفذ هذه الرسالة.

وأعطاهم رسالة مختومة بختم الخلافة إلى يحيى بن عبد الله مع رسول خاص كي يعود بالجواب.

وانطلقت قافلة محملة ببدائع الدنيا من الأموال والنفائس من لؤلؤ وجواهر وتماثيل وملابس وفرش...مع كوكبة من الفرسان تحرسها.

* * *

كان الفضل بن يحيى يشعر بأن جواسيس هارون يرقبون كل حركة

يقوم بها، ولذلك كان لا يفرط في شيء، بل يبذل جهده في أمر يحيى بما يرضي هارون، فجعل يرسل الجواسيس تتحرى لتأتيه بأخبار (جستان) ودقائق الأسرار في مملكته.وعاد إليه أحد جواسيسه وعيونه.

الرجل: مولاي .. لقد أتيتك بمفتاح (جستان)، وصاحب التأثير عليه.

الفضل بن يحيى: من تعني يا رجل؟

الرجل: لقد أخبرني من يعرف أسرار قصر جستان، أنه لا يرفض لزوجته طلباً، فإذا أمرت لها بشيء فلا أراها إلا تميل بجستان لإجابة طلب الخليفة.

ومن ساعة وصول هذا الخبر أمر الفضل بن يحيى بإرسال ما يمكن أن يسبي عقول النساء وأنفذه إلى زوجة (جستان)...فلما وصل إليها سرت سروراً عظيماً، وأدركت ثمن تلك الهدايا، وأسرته في نفسها.

وأقبلت رسل الخليفة إلى الفضل بن يحيى...وأخبروه بما طلب منه الخليفة فاختار الفضل رجلاً من أصحابه وأنفذه إلى يحيى بن عبد الله

من ساعته.

وجعل يواصل إرسال الهدايا بيد سخية، فأموال المشرق والمغرب ترسل إليه، فلا تكاد تغيب شمس يوم إلا وتصل إليه قافلة من الخليفة منذ وصوله.

الفصل الرابع

(١)

كان الإمام يحيى بن عبد الله وأصحابه يعملون بجد في نشر دين الله بين أوساط أهل الديلم، فيبادرون إلى تعليم كل من يصل إليهم، أن دين الإسلام يدعو إلى الأخلاق والخصال الكريمة، وقد أسلم لهم الكثير من الناس وتجاوبوا مع دعوتهم، فسلوكهم كان يجذب الناس نحوهم.

وفي أحد الأيام أقبل رسول الخليفة، وجعل يسأل عن مكان يحيى بن عبد الله وأصحابه.. فلما دلوه عليه أسرع إليه برسالة الخليفة.

فجعل يحيى يتصفح رسالة الخليفة، فلما أكمل قراءتها وعلم بما فيها أخذ الدواة، وجعل يكتب الجواب إلى هارون.

بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد.. فقد فهمت كتابك وما عرضت عليّ من الأمان على أن تبذل لي أموال المسلمين وتقطعني ضياعهم التي جعلها الله لهم دوني ودونك ولم يجعل لنا فيها نقيراً ولا فتيلاً.. فاستعظمت الاستماع له فضلاً عن الركون إليه، واستوحشت منه تنزهاً عن قبوله .. فاحبس عني أيها الإنسان مالك وإقطاعك وقضاك لحوائجي فقد أدّبَتْني إذاً خالفٌ ناقصاً، وولدتني عاقاً قاطعاً.

فوالله لو أن من قتلتهم من أهلي تركٌ وديالم على بُعد أنسابهم مني وانقطاع رحمهم عني لوَجَبت علي نُصرتهم والطلب بدمائهم إذ كان منكم قتلهم ظلماً وعدواناً.. والله لكم بالمرصاد لما ارتكبتم من ذلك، وعلى الميعاد لما سبق فيه من قوله ووعيده، وكفى بالله جازياً ومعاقباً، وناصراً لأوليائه ومنتقماً من أعدائه.

ثم قال في رسالته بعد كلام طويل[1] تكلم فيه عن مظالم أهل البيت منذ وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى أن هلك موسى المسمى بالهادي ثم قال:

ثم امتحننا الله بك من بعده -يعني أخاه موسى- فحرصت على قتلنا وظلمت الأول والآخر منا، لا يؤمنك منهم بُعد دار، ولا نَأْي جار، تتبعهم حيلك وكيدك حيث سُتِروا من بلاد الترك والديلم، لا تسكن نفسك ولا يطمئن قلبك دون أن تأتي على آخرنا، ولا تدع صغيرنا، ولا ترثى لكبيرنا لئلا يبقى داع إلى حق ولا قائل بصدق، ولا أحد من أهله حتى أخرجك الطغيان وحملك الشنآن أن أظهرت بَغَضَة أمير المؤمنين، وأعلنت بنقصه، وقربت مبغضيه، وآويت شانئيه حتى أربيت على بني أمية في عداوته، واشفيت غِلّتهم في تناوله، وأمرت بكرب قبر الحسين بن علي صلوات الله عليه وتعمية موضعه، وقتل زواره، واستئصال محبيه..

---

(١) راجع الحدائق الوردية للشهيد حميد المحلي ج١ ص ٣٣٤-٣٤١، الطبعة الأولى٢٠٠٢م.

فوالله ما بأمركم خفاء، ولا بشأنكم إمتراء .. ولِمَ لا نجاهدك، وأنت معتكف على معاصي الله سبحانه صباحاً ومساءً مغتراً بالمُهْلة آمنا من النقمة، واثقاً بالسلامة ... تارة تغري بين البهائم بمناطحة كبش، أو مناقرة ديك، أو مخارشة كلب، وتارة تفترش الخصيان وتأتي الذكران، وتترك الصلوات صاحياً وسكران، ثم لا يشغلك ذلك عن قتل أولياء الله وانتهاك محارم الله..

فأما ما دعوتني إليه من الأمان، وبذلت لي من الأموال، فمثلي لا تثني الرغائب عزمته، ولا تنحل لخطيرٍ همته، ولا تبطل سعياً باقياً على الأيام أثره ... ولا يترك جزيلاً عند الله بمال فانٍ وعارٍ باقٍ .. هذة صفقة خاسرة .. وتجارة بائرة، وأَستَعْصِم الله منها وأسأله أن يجيرني من مثلها بمنه وطَوله.

أفأبيع المسلمين وقد سمت إليَّ أبصارهم، وانبسطت نحوي آمالهم بدعوتي، واشرأبت أعناقهم نحوي؟؟ إني إذاً لدنيء الهمة لئيم الرغبة وضيق العطن ... هذا والأحكام مهملة، والحدود معطلة، والمعاصي مستعملة، والمحارم منتهكة، وديـن الله محقور، وبصيرتي مشحوذة،

أفأبيع خطر مقامي بمالكم، وشرف موقفي بدراهمكم، وألبس العار والشنار بمقامكم؟!...{قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ}

ووالله ما أكلي إلا الجشب[1]، ولا لباسي إلا الخشن، ولا شعاري إلا الدرع، ولا صاحبي إلا السيف، ولا فراشي إلا الأرض، ولا شهوتي من الدنيا إلا لقاؤكم والرغبة في مجاهدتكم .. ولو موقفاً واحداً لإنتظار إحدى الحسنيين في ذلك كله في ظَفرٍ أو شهادة..

وبعد .. فإن لنا على الله وعداً لا يخلفه {وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا} {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ

---

(١) الجشب: الغليظ اليابس من الطعام.

عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ} .

ثم طوى الكتاب وسلمه إلى رسول هارون، وانطلق من ساعته، فلما وصل الكتاب إلى الفضل أنفذه إلى هارون الرشيد في بغداد.

فلما وصل الرسول إلى القصر بادر الخليفة إلى استقباله...وأسرع إلى فتح الرسالة وقراءتها..

كان هارون عند وصول رسالة يحيى بن عبد الله يراها رسالة كسائر الرسائل.

فلما تصفح ما فيها جعل ينظر إليها وكأنها جيش بكامل عدته قد اقتحم عليه مدينة السلام من جميع جهاتها.

لقد أدرك هارون أن ما يدور في قصره من المنكرات لم يعد سراً لا يعلمه إلا من يريد، وأن خصمه عنيد ...فاشتد غمه.. وساء ظنه ... وعظم عليه أمره ... وخاف أن تكون قد انقضت مدته .. وقرب ذهاب ملكه...فجمع خاصته

وجعل من يقرأ عليهم كتاب يحيى..

فلما انتهوا من قراءة الكتاب لحظ الجميع اكتئاب أمير المؤمنين وسوء حاله.

فالتفت إليه قاضي القضاة وهب بن وهب البختري وقال: لا يغمك يا أمير المؤمنين أمر يحيى بن عبد الله .. فعلي أن أحتال لجستان حتى يسلمه إليك.

هارون ويلك كيف تفعل

بو البختري سير

إلى جستان بجمع من وجوه هل دُسْتُبا وقزوين وزنجان وبهر والري وهمذان وجميع علمائها فيشهدون عنده بأني قاضي القضاة فأشهد له ن يحيى عبدٌ لك

سليمان بن فليح وذهب معه فيشهدون عنده ني صاحب ديوان الخراج ثم شهد معه نه عبدٌ لك

عليه السلام بو البختري رضي الله عنه ويأمر عليه السلام مير المؤمنين بمن لم يشهد لنا ومعنا فنضرب عنقه ونستصفي ماله رضي الله عنه فإن عليه السلام مير المؤمنين إذا فعل ذلك بهم شهدوا جميعاً رضي الله عنهما

فأشرق وجه الخليفة لهذا الأمر وسر سروراً ظهر على ملامح وجهه، ونادى بثلاثمائة ألف درهم، فرماها إلى أبي البختري ومائة ألف لسليمان بن فليح.

وكتب رسالة إلى الفضل بن يحيى يأمره بما رآه أبو البختري وأنفذهم في تلك الساعة مع البريد إلى الفضل بن يحيى.

* * *

وجعل الفضل بن يحيى يؤثر الرسل بأفخر الهدايا إلى زوجة (جستان) منفذاً لأمر الخليفة.

فلما وصل إليه قاضي القضاة وسليمان بن فليح سارع في تنفيذ أمر الخليفة...فجمع تسعمائة رجل من العلماء والعدول المعروفين في تلك البلاد وأربعمائة من أهل طبرستان.

فلما صاروا إليه قام إليهم أبو البختري فقال:

رضي الله عنهما يا قوم رضي الله عنهما إن هذا يحيى بن عبد الله رضي الله عنه قد دخل الديلم ويريد عليه السلام ن يقاتل بأهل الشرك عليه السلام هل الإسلام ويخرج يده من طاعة عليه السلام مير المؤمنين رضي الله عنه وقد حانت الرخصة بالكذب والخديعة في الحرب رضي الله عنه وقد رعليه السلام ينا عليه السلام نه عبدٌ لأمير المؤمنين رضي الله عنه نطلب بذلك الثواب عند الله رضي الله عنهما رضي الله عنه لترجع عليه السلام لفة المسلمين وتسكن الثائرة رضي الله عنه ولا غنى بكم عن حسن جزاء عليه السلام مير المؤمنين وهذا كتابه رضي الله عنهما رضي الله عنه ثم عليه السلام قبل يقر عليه السلام م رضي الله عنهم

((إلى الفضل بن يحيى، يقدم عليك قاضي القضاة أبو البختري ومن معه، فاجمع له علماء ووجهاء أهل البلاد ممن يعرفهم جستان ملك الديلم واجعلهم يشهدون بما يأمرهم، فإن أبى أحدهم فاضرب عنقه كائناً من كان، واستصفِ ماله، ومن يشهد فأكرمه وأحسن إجازته وأسقط عنه الخراج)).

اضطرب أهل الدين، وسارع أهل الدنيا بالامتثال، ودارت معارك

الخوف والطمع في جانب .. والدين والإيمان في جانب..

ولكن السيف والنطع كانا أشد بلاغة وفصاحة وأشد قوة وضراوة، فلم يستطع أحد أن يقول للباطل: لا، وللحق: نعم، فأجمع أمر القوم على الشهادة.

(٢)

انطلق أبو البختري بمن معه إلى عاصمة بلاد الديلم وقدموا على الملك (جستان) ... فلما اقبلوا دخل عليه البختري وسليمان بن فليح ... فاستقبلهم (جستان)، فرأى عليهم من المهابة ما عرف أنهم ذو شأن فأحسن استقبالهم.

جستان من الرجلان

بو البختري نا وهب بن وهب قاضي القضاة في البلاد الإسلامية وهذا سليمان بن فليح صاحب ديوان خراج مير المؤمنين هارون الرشيد

جستان وماذا يحمل القوم هل تيتم في مر يحيى بن عبد الله وصحابه

بو البختري نعم لقد تينا إليك بشأن هذا العبد الآبق على سيده

جستان ما هو بعبد بل هو ابن بنت نبيكم رجل صالح فاضل من خيرة من عرفت

سليمان يها الملك قاضي القضاة علم بالأمر فإذا كان قد خدعك هذا العبد بقوله وتنسكه فأنت معذور ولكني شهد لله نه عبد من عبيد مير المؤمنين

بو البختري ونا شهد بذلك وكل من قبل إلى بلدك من هل العلم والري والوجاء يشهدون بذلك

جستان فأدخلهم عليّ ليشهدوا

فجعل كل أهل بلدة يدخلون ويشهدون بأن يحيى بن عبد الله عبد

لهارون الرشيد، فلما أكمل الناس، أخرج أبو البختري من الدر والجواهر والملابس ما يأخذ بالألباب وقدمها إلى (جستان) وزوجته ...وانصرف الناس في ذلك اليوم.. وخلا (جستان) مع نفسه وزوجته.

جستان: لا أكاد أن أصدق، بل أجزم أن هذا أمر مدبر، فكل ما في يحيى بن عبد الله ينطق بخلاف ما يقول هؤلاء.

زوجته مالك ولهذا الرجل الذي لا يملك شيئ صدَقوا م كذبوا فهو منهم وإليهم وقد عطوك من الأموال الشيء الكثير وما تحمل قوافلهم التي قبلوا بها عظم فسلِّم إليهم الرجل

جستان وعهودي و مانى الذي قطعته على نفسي ليحيى ولأصحابه ونظرة الناس لي إن خنت يحيى

زوجته يا رجل إن لك فيمن شهد بين يديك

معذرة رضي الله عنه وهل تظن عليه السلام ن كل هؤلاء بما فيهم من ذوي الفضل والعلم يكذبون ويصدق يحيى بن عبد الله رضي الله عنهم

* * *

اجتمعت الزوجة المحبوبة وحب المال ووجود المعاذير، فجعلَتْ (جستان) أميل شيء إلى تسليم يحيى بن عبد الله... فأمر من يأتيه بيحيى.

فلما دخل يحيى بن عبد الله المجلس باشره (جستان) قبل أن يتمكن من إلقاء التحية.

جستان عليه السلام ما وجدت عليه السلام حداً تخدعه بدعوتك غيري رضي الله عنهم

يحيى عليه السلام يها الملك رضي الله عنها رضي الله عنه إن لك عقل أرضي الله عنه فإن لم يكن لك دين رضي الله عنه فتدبر ما يقول القوم وما تقدم منهم إليك فردده على قلبك وعقلك رضي الله عنه واجعل عقلك حكماً وهواك رضي الله عنه إني لو كنت كما قالوا ما وجهوا لك

هنه الأموال رضي الله عنه وما عليه السلام ردفوها بهنه العساكر رضي الله عنه ولما بذلوا في دفعك إياي إليهم هنه الأموال رضي الله عنه وجمعوا لك من ترى من وجوه الجيل وفقهائها ومعدليها ليشهدوا عندك بالزور رضي الله عنه وما كان عليهم من رجل جاء إلى عدوهم عليه السلام وليهم ينتمي إلى نسب ليس منه رضي الله عنها

كان (جستان) قد قرر في أعماقه أن يسلم يحيى إليهم، ولذلك ما كانت كلمات يحيى لتغير من موقفه شيئاً، فما عُرض عليه كان مغرياً.

جستان رضي الله عنهم دعني من هذا يا يحيى رضي الله عنه ما كان كل هؤلاء ليشهدوا عندي بالزور رضي الله عنها

يحيى رضي الله عنهم إذاً فابعث رجلين ممن تثق بهما من رجالك مع رسولي إلى مكة والمدينة رضي الله عنه فيسألوا عني رضي الله عنها

جستان رضي الله عنهم هذا يطول رضي الله عنها

أدرك يحيى بن عبد الله سريرة الملك ولمس نيته فداخله اليأس من رجوع الملك عن عزمه..

يحيى بن عبد الله عليه السلام يها الملك رضي الله عنها فدع هذا وابعث رسولاً إلى بغداد ورسلاً إلى قزوين وسائر المدن رضي الله عنهم فيسأل عن هؤلاء الشهود رضي الله عنهم فتعرف حالهم وعليه السلام نهم شهود زور وعليه السلام نهم عليه السلام كرهوا على شهادتهم رضي الله عنهم وعليه السلام نهم إن عليه السلام بوا قُتلوا واستُصفِيَت عليه السلام موالهم وسبيت ذراريهم رضي الله عنها

فأعرض (جستان) متضجراً مبدياً للسآمة، ثم قال:

ما نصنع بهذا الكلام؟ لِمَ يشهد هؤلاء كلهم عليك زوراً؟

أطرق يحيى مفكراً يقلب الأمر باحثاً عن مخرج، ثم رفع رأسه.

يحيى رضي الله عنهم فاجمع بيني وبينهم حتى عليه السلام كلمهم بحضرتك رضي الله عنها

لقد طمع يحيى بن عبد الله أن يكلمهم ويذكرهم الله فيرجعوا أو تختلف كلمتهم .. واستحيا (جستان) أن يرد ليحيى طلبه هذا فقال: ذلك لك .. ثم قال لرئيس الجند: أرسل من يحضر رسول الخليفة.

فلما حضر أبو البختري قال له: اجمع أصحابك واحضروا حتى

يشهدوا على يحيى في وجهه.

ودخل الجميع واستقر كل في مجلسه.. فلما اجتمعوا نـصب ليحيـى كرسياً ليكون أمام الجميع كلٌ منهم يشاهده...

فتكلم الإمام فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي وآله ثم قال:

أما بعد معاشر العرب، فإنكم كنتم من الدنيا بِـشَرِّ دَار... الأعـاجم لكم قاهرة، وجنودهم علـيكم ظـاهرة، لم يمـنعهم مـن تحـويلكم مـن بلدكم إلا قلة خير بلدكم ... فما عسى أن يصيب منها هـذا عـلى تفـرق شملكم واختلاف كلمتكم؟ لا تُحلون حلالاً ولا تحرمـون حرامـا ولا تخافون أثاماً ... ثم منَّ الله عليكم وخصكم دون غـيركم فبعـث فـيكم محمداً صلى الله عليه وآله وسلم فاستنقذكم من ظلمة الـضلال إلى نـور الهدى وجلا غشاوة العمى عن أبصاركم بضياء مصابيح الحـق ... ثـم اقتضب برمحه لكم الدنيا الصعبة ومرّى ضرعها بيمين كفـه، فأحفلـت أخلافها وانبعثت ألبانهـا ... وتركهـا رسـول الله صـلى الله عليـه وآلـه وسلم تدور حولكم وتلوذ بكم .. ولم يبلغ منكم على ما جاءكم به أجراً إلا أن تودوه في قرابته، ومـا فعـل ذلـك حتـى أنـزل الله قرآنـاً {قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى}

فلما بلّغ رسالة ربه .. وانجز له ما وعده من طاعة العباد والتمكن في البلاد دُعي فأجاب ... وخلّف بين أظهركم ذريته، فأخرتموهم وقدمتم عليهم غيرهم ووليتم أموركم سواهم، ثم لم يلبث إلا يسيراً حتى جعلتم مال ولده حوزا وظُلمت ابنته فدفنت ليلاً، وقتل فيكم وصيه وأخوه وابن عمه وزوج ابنته .. ثم خذل وجرح وسم سبطه الأكبر أبو محمد .. ثم قتل سبطه الأصغر أبو عبد الله مع ثمانية عشر رجلاً من أهل بيته الأدنين في مقام واحد ... ثم على اثر ذلك نبش وصُلب وأُحرق بالنار ولد ولده، ثم هم بعد ذلك يُقتلون ويُطردون ويشردون في البلاد إلى هذه الغاية قُتل كبارهم وأُوتم صغارهم وأُرملت نساءهم.

سبحان الله ما لقي عدو من عدوه ما لقي أهل بيت نبيكم منكم من القتل والخوف والصلب والحرق وليس فيكم من يغضب لهم إلا هزواً بالقول .. وإن غضبتم زعمتم وقمتم معهم كي تنصروهم لم تلبثوا إلا يسيراً حتى تخذلوهم.. بأي وجه تلقون محمداً صلى الله عليه وآله وسلم غداً؟ وبأي عذر تعتذرون إليه؟ أَبِقلّةٍ؟ فما أنتم بقليل.. أفتجحدون؟ فذلك يوم لا ينفع جحد.. ذلك يوم تبلى فيه السرائر.. أم تقولون:

قتلناهم. فمصدقون.. يأخذكم الجليل أخذ عزيز مقتدر..

إني لأعجب من أحدكم يقتل نفسه في معصية الله ولا ينهزم.. يقول بزعمه: لا تتحدثن نساء العرب بأني فررت.. وقد تحدثت نساء العرب بأنكم خفرتم أمانتكم.. ونقضتم عهودكم.. ونكصتم على أعقابكم.. وفررتم بأجمعكم عن أهل بيت نبيكم.. فلا أنتم تنصرونهم للديانة وما افترض الله عليكم... ولا من طريق العصبية والحمية.. ولا لقرب جوارهم وتلاصق ديارهم منكم.. ولا أنتم تعتزلونهم فلا تنتصرونهم ولا تنصروا عليهم عدوهم.. بل صيرتموهم لحمة لسيوفكم.. ونهزاً لتشفي غيظكم من قتلهم واستئصالهم وطلبهم في مظانهم.. وفي دارهم وغير دارهم.. فصرنا طريدةً لكم من دار إلى دار.. ومن جبل إلى جبل.. ومن شاهق إلى شاهق.. ثم لم يقنعكم ذلك حتى أخرجتمونا من دار الإسلام إلى دار الشرك، ثم لم ترضوا بذلك من حالنا حتى تداعيتم علينا معشر العرب خاصة من دون العجم .. فخرجتم إلى دار الشرك طلباً لدمائنا دون دماء أهل الشرك تلذذاً منكم بقتلنا، لئلا يبقى بين أظهركم

من ذرية نبيكم عين تطرف ولا نفسٌ تعرف، ثم لم يقم بـذلك مـنكم إلا أعلامكم، ووجوهكم، وعلماؤكم وفقهاؤكم، والله المستعان[1].

فمـا أكمـل كلامـه حتـى ضـج النـاس بالبكـاء وعلـت أصواتهم وكثر نحيبهم، فقام أحدهم قائلاً:

- ويلكم هل بقي لكم حجة أو علة؟ لو قتلتم عـن آخـركم، وسـبيت ذراريكم، واستصفيت أموالكم لكان خيراً لكم من أن تشهدوا على ابن نبيكم بالعبودية، وتنفوه عن نسبه.

وارتفت الأصوات من هنا وهناك بمثل ذلك ... فجلجل في أرجاء المجلس صوت كأنه الرعد عند اشتداده: ما تنتظرون؟

التفت الجميع إلى الناحية التـي انبعـث منهـا الـصوت...فـإذا هـو أبـو البخـتري وقـد أحمـر وجهـه واشـتد غـضبه، وجعـل يخـاطبهم في غضب:

---

(١) الخطبة منقولة هنا بتصرف؛ راجع الحدائق الوردية للشهيد حميد المحلي ج١، ص٣٤٢-٣٤٥.

- والله لئن امتنعتم عن الشهادة عليه لتقتلن عن آخركم ولتسبين ذراريكم ولتأخذن أموالكم، فتقدموا هيا.

فصُعقت أمام هذه الكلمات عزائم الرجال وذهب حماسهم وتزلزلت عرى الإيمان في قلوبهم فتقدموا فرداً فرداً ليدلوا بشهادتهم لا يكاد أحد منهم يتجاسر أن يرفع نظره إلى وجه الإمام.. فجعل يحيى ينظر إلى (جستان) ويتأمل في ملامحه.

كان يحيى بن عبد الله يعرف أن الملك قد أدرك الحقيقة، ولكن كان قد استولى على قلبه حبُّ المال والطمعُ فيه، فأعرض عن كل الحقائق..

وكان يحيى بن عبد الله يسألهم عن أسمائهم وبلدانهم فيعلم أن بعضهم ممن بايعوه وراسلوه في الخروج والجهاد..

فلما انتهوا من الادلاء بشهاداتهم إلتفت إليهم يحيى بن

عبد الله فقال لهم:

- مالكم، فرق الله بين كلمتكم وخالف بين أهوائكم، ولا بارك الله لكم في أنفسكم، ولا أولادكم، أما والله لولا خوف الله ومراقبته لقلت ما لا تنكرون ولكن أمسك مخافة أن تُقتلوا وأن أُشرك في دمائكم...ولكن لأن أكون مظلوماً أحب إلي من أن أكون ظالماً.

ثم توقف عن الكلام وجعل ينظر في وجوههم.. ثم خاطبهم قائلاً:

رضي الله عنهما عليه السلام علم عليه السلام نكم مكرهون رضي الله عنهم وعليه السلام نكم ضعفتم عن الصبر على القتل رضي الله عنهم فوسع الله عليكم وعليه السلام سلمنا وإياكم من هذا الجبار العاتي رضي الله عنهما

جستان -وهو يلتفت إلى يحيى بن عبد الله: هل بقي لك علة تعتل بها بعد شهادة هؤلاء.

صمت يحيى قليلاً وهو ينظر في وجه (جستان) الذي كان يبدي التغابي..كان الإمام يفكر في نجاة أصحابه إن لم

ينجُ هو.

يحيى: قد بان لك أيها الملك من بكائهم وترددهم أنهم مكرهـون، فـإذا أبيت إلا غدراً فأنظِرْني آخذ لي ولأصحابي الأمان على نسخة أنشئها أنا وأوجهها إلى هارون حتى يكتب إقراره ذلك بخط يـده ويجمـع الفقهاء والمعدلين وبني هاشم فيشهدون على ذلك...

وطارت الأخبار لتطرق مسامع الخليفة في بغداد فبلغ منه السرور مبلغه ... وأظهر من الفرحة الشيء العظيم ... وفرق الأموال في حاشيته ونثرت الورود وهيئت المجالس لإقامة الأفراح.

وخـرج هـارون مـن مقـصورته وتـرك لـبس الـصوف ولـبس الشفوف...فلما وصلت إليه نسخة الأمان التي كتبها يحيى بن عبـد الله جعل يتصفحها .. فإذا فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم... هـذا كتـاب أمـان مـن أمـير المؤمنين هارون بـن محمـد بـن عبـد الله ليحيى بـن عبـد الله

ولسبعين من أصحابه أني أمنتك بأمان الله الذي لا إله إلا هو أماناً صحيحاً جائزاً صادقاً ظاهره كباطنه وباطنه كظاهره.. فإن نقض هارون الرشيد ما جعل لك ولأصحابك من الأمان فلا قبل الله منه صرفاً ولا عدلاً وزبيدة منه طالق ثلاثاً، وكل مملوكٍ له أحراراً، وكل امرأة له طالق، وكل ما يملكه أو يستفيده فهو صدقة على الفقراء، وعليه المشي إلى بيت الله الحرام حافياً راجلاً وعليه المحرجات من الأيمان.. والأمة من ولايته براء ولا طاعة له في أعناقهم.

فلما أكمل هارون قراءته أسرع إلى جمع بعض الوجهاء والعلماء وأشهدهم على ذلك ولم يكترث بما فيه من التغليظ...وكتب بخط يده ذلك العهد وأرسله إلى يحيى بن عبد الله وأبقى النسخة المرسلة له من يحيى بن عبد الله عنده.

وأرسل مع العهد إلى يحيى بن عبد الله ألف ألف

والشيء الكثير من الهدايا.

* * *

وصل إلى الإمام يحيى بن عبد الله رسل الخليفة بالأمان المكتوب بخط هارون وتوقيعه، فعلم الإمام أنه صائر لا محالة إلى هارون، فجمع أصحابه وقال لهم:

رضي الله عنهما يا قوم جزاكم الله عنا خير الجزاء وكتب عليه السلام جركم رضي الله عنه لقد رعليه السلام يتم وسمعتم ما يحدث وعليه السلام نا لا شك صائر إلى هذا الرجل ولا ثقة لي فيه رضي الله عنه وعليه السلام نا عليه السلام رجو إن لم عليه السلام نجُ عليه السلام نا بنفسي عليه السلام ن تكتب لكم النجاة رضي الله عنه فهذا الليل قد غشيكم فتفرقوا في البلدان واستتروا يرحمكم الله رضي الله عنهما

عليه السلام حدهم رضي الله عنهم يا ابن رسول الله عليه السلام نفسنا لك الفداء رضي الله عنه فنحن باقون معك نجاتنا بنجاتك وهل اكنا بهل اكك فلسنا نفارقك رضي الله عنهما

الإمام رضي الله عنهم ليس الأمر كما تظنون رضي الله عنه فهؤلاء لا وفاء

لهم رضي الله عنهم ولكن إن متنا وهلكنا جميعاً فإني عليه السلام خاف عليه السلام ن لا تقوم للحق قائمة رضي الله عنهم فاسمعوا وعليه السلام طيعوا عليه السلام مري رضي الله عنها

أذعن الجميع على مضض لرأي الإمام، وقام الجميع يودعون الإمام يحدوهم الأمل في لقائه والنظر إلى وجهه عن قريب إن شاء الله .. وقبل أن ينصرفوا أخذ الإمام يوصيهم.

الإمام: يا قوم لا تركنوا إلى أي رسالة تأتيكم مني، ولا يرسل إلي أحد منكم، من أحببت لقاءه أتيته بنفسي، فإن هارون لن يترك حيلة لنقض الأمان إلا ويفعلها.

ثم انطلقت كل مجموعة منهم إلى بلد متخفين خشية أن يكشف أمرهم .. وفي صباح اليوم الثاني خرج (جستان) مع كبار مملكته ومعهم يحيى بن عبد الله.

وأقبل الفضل بن يحيى ومعه مال عظيم، فلما تقارب الجمعان أرسل (جستان) مَنْ حَمَل الأموال.

وتقدم يحيى بن عبد الله إلى الفضل بن يحيى، فلما اقترب يحيى بن

عبد الله نـزل الفضل من على فرسه ونـــزل كبـار القـواد وأقبلـوا عـلى يحيى بن عبد الله.

فجعل الفضل بن يحيى يعانق يحيى بـن عبـد الله ويقبلـه وجعلـوا يزدحمون عليه حتى حمل فوق الأعناق، وكان يحيى بن عبد الله قد كتب نسخة أمان أخرى ألزم الفضل بتوقيعهـا...وأسرع الفـضل بمـن معـه إلى بغداد يحملون يحيى بن عبد الله ليسلموه إلى هارون.

فلما استقر في مدينة السلام .. استقبلهم هارون وبادر إلى يحيى بـن عبد الله، فأنـزله في منـزلٍ خـاص بـه وأمـر لـه بأربعمائـة ألـف دينـار وللفضل بن يحيى بمثلها.

الباب الثالث

الفصل الأول

(١)

لقد أدرك هارون بإرجاع يحيى بن عبد الله إلى دولته وإنـزاله قريبـاً منه بعض أمله.. ولكن نفس هارون كانت تراوده بما هو أعظم .. فـإن منتهى أمله هو قتل يحيى بن عبد الله والتخلص منه.

جلـس هـارون في مجلـسه وجعـل يـستعرض الأحـداث الماضية منذ بدأ مرحلة المطاردة والمتابعة ليحيى بـن عبـد الله وجعـل يقـول في نفـسه: كـل شـيء هـين، وكـل مـا بـذلت يسير في مقابل أن يصير يحيى بن عبد الله بين يـدي، ولكـن الـشيء الـذي لـن أنـساه وسـيبقى يـؤرقني في نـومي هـي مصادر تلك الصكوك التي كانـت مـع يحيـى وأصـحابه، لا

بد أن مصدرها قصري، لكن من يجرؤ أن يفعل ذلك، لا يمكن أن يكون أحد بني بَرْمَك .. فإنهم أكثر الناس وفاءً لي، ولكن لا بد أن أحتاط، سأجعل الجواسيس في كل مكان لن أثق في أحد حتى أعلم مصدرها، أما الفضل بن يحيى، فسأجعل يحيى بن عبد الله تحت يده، وأفرض عليه الجواسيس وسأعلم ما علاقته بيحيى من طريقة تعامله معه.

ونادى هارون على بعض جنوده:

- أين الفضل بن يحيى؟ عليَّ به.

وما هي إلا لحظات حتى كان الفضل واقفاً بين يدي الخليفة هارون الرشيد..

الفضل عليه السلام مر مولاي خادمك وابن خادمك طوع عليه السلام مرك رضي الله عنها

هارون اسمع يا فضل رضي الله عنها رضي الله عنه يريد عليه السلام ن تجعل يحيى بن عبد الله تحت نظرك لا تجعله يغيب عنك لحظة رضي الله عنها

الفضل: لك ما طلبت يا مولاي ولن يكون إلا ما يسرك .. هل لمولاي من أمر آخر؟

هارون: لا... إنصرف يا فضل.

عاد هارون ليسبح في بحور التفكير: لا.. لا يكفي وجود يحيى تحت يدي .. لا بد من طريقة أتخلص بها من يحيى بن عبد الله.

هارون: يا مسرور، ادع لي قاضي القضاه أبا البختري.

وما هي إلا لحظات حتى دخل أبو البختري ... وجلس بين يدي هارون ينتظر أمره.

هارون يا عليه السلام با البختري رضي الله عنه لقد عليه السلام حسنت الحيلة في إخراج يحيى من بلاد الديلم رضي الله عنه ولكني عليه السلام رجو عليه السلام ن تجد حيلة نتخلص بها من يحيى بن

عبد الله فإني لا عليه السلام من عليه السلام ن يراسل عليه السلام نصاره عليه السلام و يجد ممن حولي عليه السلام ذناً واعية يؤثر فيه رضي الله عنه ويبث عليه ا شكواه رضي الله عنها

عليه السلام بو البختري رضي الله عنهم لا بد عليه السلام ن نستدرجه حتى نتمكن منه رضي الله عنها

هارون رضي الله عنهم كيف ذلك رضي الله عنهم

عليه السلام بو البختري رضي الله عنهم لقد بلغني عليه السلام ن فضالة كان من خيار عليه السلام تباع يحيى بن عبد الله رضي الله عنه وقد ظهر في هذه الأيام رضي الله عنه فلو عليه السلام خذناه وجعلناه يكتب إلى يحيى بن عبد الله عليه السلام نه قد عليه السلام جابه بعض قوادك وعليه السلام صحابك رضي الله عنها رضي الله عنها فيفرح يحيى بذلك فيجيبه فيكون في ذلك عذراً لك في نقض عليه السلام مانه وقتله رضي الله عنها رضي الله عنها

هارون رضي الله عنهم لله عليه السلام نت يا عليه السلام با البختري رضي الله عنه فباشر ما قلته من الليلة ترتاح نفسي ويذهب غمي رضي الله عنها

* * *

وبعد أيام قلائل طرق رسولٌ يـدَّعي أنـه مـن فـضالة بـاب منـــزل يحيى بن عبد الله.

يحيى من الطارق

الرجل افتح يا مولاي الإمام قبل ن يراني حد

يحيى بن عبد الله ليس هنا من يُدعى الإمام فاذهب يا رجل

الرجل إني رسول إليك من بعض خاصتك لأمر مُهِم فافتح لي الباب

وبإصرار جعل يدعو الإمام لفتح باب الـدار..فـتح الإمـام البـاب ودخل الرجل متخفياً يتظاهر بالخوف والوجل.

الإمام: من الرجل؟. ومن أين أقبلت؟

الرجل نا من شيعتكم وهذه رسالة مولاي

أخذ يحيى الرسالة وجعل يتصفحها، فإذا هي من فضالة يخبره ببيعة القواد له.

فطوى الرسالة، وقال للرجل: انتظر ولا تبرح مكانك حتى آتيك.

ثم خرج من الدار وتوجه إلى بعض ديار يحيى بن خالد البرمكي.

بقي ذلك الرجل في مكانه وهو لا يشك في نجاح مهمته وخديعة يحيى بن عبد الله، وظن أنما غيابه ليأتيه ببعض الأموال هدية وجائزة...

وبينما الرجل يسبح في تفكيره إذ دخل يحيى بن خالد، ومعه كوكبة من الفرسان، فألقوا القبض على الرجل، وأمرهم يحيى بن خالد أن يودعوه في السجن إلى أن يعرض أمره على الخليفة.

* * *

وفي اليوم الثاني توجهوا بالرجل نحو قصر الخلافة، وكان أول الداخلين على الخليفة هو يحيى بن خالد

البرمكي، ويحيى بن عبد الله ومعهم المتهم..

وعرض الأمر على هارون، فلم يُبدِ للموقف أي تفاعل وكأنه كان يعلم تفاصيله قبل ذلك .. ولم يزد هارون على أن قال للرجل:

- انصرف أيها الرجل وإياك أن تعود إلى مثل ذلك مرة أخرى.

ثم أقبل هارون على يحيى بن عبد الله، ويحيى بن خالد يحادثهما قليلاً حتى استأذناه في الخروج فأذن لهما.

* * *

كانت تلك المقابلة الباردة كفيلة بأن يفهم يحيى بن عبد الله أن الأمر مدبر وأن هارون يريد الاحتيال في قتله .. فعاد إلى داره وخلا بنفسه وجعل يفكر في الأمر .. فلم يداخله شك من أن الأمر مدبر .. فعزم على أن يبوح بما في داخله للفضل بن يحيى وأبيه يحيى بن خالد ليكونا شاهدين على الخليفة في محاولته لنقض العهد..

وفي المساء دخل عليه الفضل كعادته في دخوله عليه بين الحين والآخر ليحادثه وينظر في حاله ..

وبينما هما يتحادثان في شأن ما حصل بالأمس من الرجل، وما وقع اليوم من الخليفة رفع يحيى بن عبد الله نظره إلى الفضل بن يحيى وقال له:

رضي الله عنهما اتق الله في دمي واحذر عليهما السلام ن يكون محمد صلى الله عليه و عليهما السلام له وسلم خصمك غداً في دمي رضي الله عنهما

الفضل رضي الله عنهم ما الأمر يا يحيى رضي الله عنهم رحمه الله فليس هنا ما تخاف منه رضي الله عنهما

يحيى: إنك تعلم أن الخليفة يبتغي الحيلة تلو الحيلة ليوقع بي، وأنت – والله–شريكه، فاتق الله يا هذا.

الفضل رضي الله عنهم لا والله لا يكون مني إلا ما تحب وإذا كان قد ضاق بك المقام هنا يا يحيى فاذهب إلى عليه السلام هلك رضي الله عنه وزر قبر جدك رضي الله عنه واحذر عليه السلام ن يعلم بالأمر عليه السلام حد رضي الله عنه فإن سألني هارون عنك

(٢)

وفي الصباح الباكر انطلق يحيى بن عبد الله بالراحلة التي أعدها له الفضل متوجهاً نحو المدينة وخرج متخفياً دون أن يعلم أحد بخروجه .. ولكن سرعان ما وصل الخبر إلى هارون على لسان أحد جواسيسه الذين وضعهم عيوناً على الفضل بن يحيى، ويحيى بن عبد الله..

وأرسل هارون في طلب بكار بن مصعب الزبيري -وكان من أشد الناس عداوة للطالبيين.

فلما وقف بكار بين يدي هارون قال له:

- اسمع يا بكار ما أوصيك به وحذار أن يقودك حمقك إلى غيره .. لقد ذهب يحيى بن عبد الله إلى أهله في المدينة، وسيستقر في داره هناك وقد وليتك إمارة المدينة، فلا تجعله يغيب عنك لحظة .. تعرّف على الداخل والخارج واعرف أين ينفق أمواله .. لا أريد أن تغيب عني

أخباره.

بكار: لك ما طلبت يا مولاي .. وإني لمرتحل الساعة لتنفيذ أمر أمير المؤمنين.

وانصرف بكار بعد أن نال ما كان يتمناه فهذا الأمر كان قد وافق هوى في قلب بكار الذي يتحين الفرصة ليشفي غليل صدره من آل أبي طالب.

وبعد إنصراف بكار من مجلس هارون، دخل الفضل بن يحيى على الخليفة فبقي مع الخليفة ساعة يتحادثان .. ثم استأذن الفضل يريد الانصراف.

هارون لكن ما خبر يحيى بن عبد الله

الفضل هو عندي مقيم في موضعه

هارون وحياتي

الفضل: وحياتك أني أطلقته .. سألني برحمه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرققت له.

هارون: أحسنت.. قد كان عزمي أن أخلي سبيله.. إنصرف الآن..

وتوجه الفضل نحو الباب فجعل هارون ينظر إليه وهو يقول في نفسه: قتلني الله إن لم أقتلك.

وأسرع الفضل يرسل إلى يحيى يخبره بموافقة أمير المؤمنين على إطلاقه.

وبقي هارون بعد هذا الموقف لا يداخله شك في أن الصكوك التي كان يتنقل بها يحيى بن عبد الله وأصحابه لا تعدو أن تكون من الفضل بن يحيى أو من أبيه.

* * *

عند وصول يحيى بن عبد الله إلى المدينة استقبله أهله ومواليه وسروا به سروراً عظيماً...فجعلوا يهنؤنه على السلامة.

فقصده العلماء ليزدادوا من علمه وقصده الأقرباء والشيعة صلة له، وقصده الفقراء يبغون سد

حوائجهم...فأقبل يحيى على تلك الأموال التي أعطاه إياها هارون يقسمها بينهم ويقضي عنهم ديونهم...فقضى عن الحسين بن علي الفخي تسعين ألف دينار...وأعطى مواليه وشيعته وأهل بيته حتى أغناهم.. فقصده المتخاصمون للإصلاح بينهم وفك نزاعهم. وصار داره لا يكاد يخلو من ضيف أو زائر أو صاحب حاجة.

وكان بكار بن مصعب قد وصل إلى المدينة قبل موسم الحج وأتى موسم الحج ويحيى في أوساط أهله، والناس من حوله يجلونه ويعظمون أمره.

وأقبلت جموع الحجيج كل يبغي التعرف على يحيى بن عبد الله والنظر إلى وجهه.

وحج يحيى مع الناس يتجنب الظهور ويستتر مخافة أن يظفر به أحد أصحابه فيأتيه فيعرفه الجواسيس الذين كانت أعينهم ترقبه في كل لحظة.

كل ذلك ووالي المدينة الجديد -بكار بن مصعب بن الزبير- يرقب هذه المشاهد، فيكاد أن يتقطع غيضاً وغضباً...فكل الدعايات التي بثها في الناس لم تكن ذات تأثير لإبعاد الناس عن التعلق بأهل هذا البيت بل كانوا يزدادون بها حباً لهم وتعلقاً بهم.

لذلك حشد بكار -والي المدينة- من يثق به ويعلم حقده وكراهيته لآل علي وأعطاهم ما يقر عيونهم من الأموال وأمرهم أن يرقبوا حركات يحيى بن عبد الله وأهله ومن حوله.

فأحيط يحيى بن عبد الله بالجواسيس من أول يوم وصل فيه بكار إلى المدينة.

الفصل الثاني

(١)

وفي المدينة كان بعض من امتلأت قلوبهم بغضاً وحقداً على آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، مجتمعين في دار الأمارة عند بكار بن مصعب الزبيري، وهم: أخوه عبد الله بن مصعب، وأبو البختري، ورجل من بني زهرة، ورجل من بني مخزوم.

فشكى إليهم بكار ما يغيظه من أمر يحيى بن عبد الله وبالغ في التأوه وإظهار الغيظ.

أبو البختري عليه السلام ولماذا لا تكتب بذلك إلى الخليفة رضي الله عنه

بكار: إن عيوني الذين أرسلهم ليرقبوه لم يتمكنوا من الاطلاع على شيء يمكن أن أذكره للخليفة، فلم أرَهُ يدعو أحداً لبيعته.

عبد الله بن مصعب رضي الله عنه لو لم يكن يأتوه الناس للبيعة رضي الله عنها رضي الله عنها فلما اذا يأتوه رضي الله عنهم رضي الله عنها رضي الله عنها اكتب إليه بما يحدث رضي الله عنه وعليه السلام خبره عليه السلام نه يبايع الناس ويدعوهم لنفسه رضي الله عنه وعليه السلام نا عليه السلام حد من دعاهم وسأشهد بذلك عند الخليفة رضي الله عنها

عليه السلام بو البختري رضي الله عنه وعليه السلام نا لن عليهما السلام لو جهداً في الوشاية بيحيى وإيغار صدر الخليفة عليه رضي الله عنه فاكتب إليه ولا تتردد رضي الله عنها

ومن ساعته أخذ بكار يكتب كتابه إلى الخليفة هارون وبعث له برسالة قال فيها:

«إلى أمير المؤمنين هارون، إنَّ بالحجاز خليفة يعظمه الناس ويختلفون إليه من جميع الآفاق، وهو على الغدر، فليحذره أمير المؤمنين وليرفعه إليه وإلا فتق عليك فتقاً عظيماً».

وجعل يرسل الرسالة تلو الأخرى إلى هارون في أمر يحيى بن عبد الله...وأقبل أبو البختري، وعبد الله بن مصعب ومن معهم نحو بغداد

واتجهوا نحو قصر الخلافة للسلام الخليفة، وجعلوا يتحينـون الفرصـة للوشاية بيحيى بن عبد الله..

وجعلا يكرران ما قاله بكَّار الزبيري في رسائله التي كان قد أرسلها إلى هارون.

فنادى هارون على صاحب البريـد، وحمّلـه رسـالة إلى بكـار يـأمره بإرسال يحيى بن عبد الله إلى بغداد.

ولم تمض أيام حتى كان يحيـى يوضـع في منـــزل سري في بغـداد .. وأوكل أمره إلى خادمه مسرور..

فلمـا حـضر عبـد الله بـن مـصعب وأبـو الـبختري مجلس هارون نادى هارون على مسرور: يا مسرور عليّ بيحيى بن عبد الله.

فلمـا أقبـل مـسرور بيحيـى بـن عبـد الله .. نظـر هـارون إلى عبد الله بن مصعب وكأنه يريد منه أن يتكلم..

عبد الله بن مصعب رضي الله عنه نعم يا أمير المؤمنين عليه السلام

رضي الله عنها رضي الله عنها إن هذا دعاني لبيعته رضي الله عنها

يحيى بن عبد الله رضي الله عنهم يا عليه السلام مير المؤمنين عليه السلام تصدق هذا وتستنصحه رضي الله عنه وهو ابن عبد الله بن الزبير الذي عليه السلام دخل عليه السلام باك وولده الشعب رضي الله عنه وعليه السلام ضرم عليهم النار حتى خلصَّه عليه السلام بو عبد الله البجلي رضي الله عنه صاحب علي بن عليه السلام بي طالب رضي الله عنها منه عنوة رضي الله عنه وهو الذي بقي اربعين جمعة لا يصلي على النبي صلى الله عليه و عليه السلام له وسلم في خطبته حتى التاث[1] عليه الناس رضي الله عنه رضي الله عنها رضي الله عنه فقال رضي الله عنهم إن له عليه السلام هل بيت سوء إذا صليت عليه عليه السلام وذكرته عليه السلام تلعوا عليه السلام عناقهم واشر عليه السلام بوا لذكره رضي الله عنه وفرحوا بذلك رضي الله عنه فلا عليه السلام حب عليه السلام ن عليه السلام قر عليه السلام عينهم بذكره رضي الله عنها رضي الله عنه والله إن عداوة هذا لنا يا عليه السلام مير المؤمنين بمنزلة سواء رضي الله عنهم ولكنه قوي عليّ بك وضعفت عنك فتقرب بي إليك رضي الله عنه ليظفر

---

(١) إلتاث عليه الناس: اجتمعوا عليه يؤنبونه.

منك بما يريد إذ لم يقدر على مثله منك رضي الله عنه وما ينبغي عليه السلام ن تسوغه ذلك في رضي الله عنه وإن معاوية بن عليه السلام بي سفيان وهو عليه السلام بعد منك نسبة إلينا ذكر يوماً الحسن بن علي فسفهه رضي الله عنه فساعده عبد الله بن الزبير على ذلك رضي الله عنه فزجره معاوية فقال ابن الزبير رضي الله عنهما إنما ساعدتك يا عليه السلام مير المؤمنين رضي الله عنه فقال له رضي الله عنهما الحسن لحمي عليهم السلام كله ولا عليه السلام وكله رضي الله عنهما

عبد الله بن مصعب: إن عبد الله بن الزبير طلب أمرا فأدركه، وإن الحسن باع الخلافة من معاوية بالدراهم، أتقول هذا في عبد الله بن الزبير وهو ابن صفية بنت أبي طالب؟

يحيى: يا أمير المؤمنين .. ما أنصفنا هذا أن يفخر علينا بإمرأة منا، فهلا افتخر بهذا على قومه من النوبيات والأساميات.

عبد الله بن مصعب رضي الله عنهما وهو يلتفت إلى يحيى بكل جسمه رضي الله عنهم ما تَدَعون بغيكم علينا وتوثبكم في سلطاننا رضي الله عنهم

كان يحيى متوجهاً إلى هارون لا يلتفت إلى عبد الله بن مصعب،

وإنما يخاطب هارون، فلما سمع هـذه الكلـمات توجـه إلى عبـد الله بـن مصعب وقال له:

ومن توثبنا في سلطانكم رحمه الله رضي الله عنهما
عرفني الله رضي الله عنهما صلحك عليه السلام نتم رحمه الله عليه السلام
فلست عليه السلام عرفكم رحمه الله رحمه الله

فضج المجلس بالضحك، ورفع الرشيد رأسه إلى السقف ليستر مـا اعتراه من الضحك.

وتغيَّر لون عبد الله بن مصعب وخارت قواه حتى كادت قـدماه لا تحمله لشدة الخجل.

ثم التفت يحيى إلى هارون وواصل حديثه قائلاً:

ومع هذا يا عليه السلام مير المؤمنين فهو الخارج مع رضي الله عنهما
عليه السلام خي رحمه الله غفر الله لهما على عليه السلام بيك والقائل له

---

(١) يقصد أخاه محمد بن عبد الله النفس الزكية (ع).

إن الحمامة يوم الشعب مندفن ... هاجَتْ فؤادَ مُحِبٍّ دائم الحَزَنِ
إنا لنأمل أن ترتد أُلفتنا ... بعد التدابر والبغضاء والإحن
حتى يثاب على الإحسان محسننا ... ويأمن الخائف المأخوذ بالدِّمَن
وتنقضي دولة أحكام قادتها ... فينا كأحكام قوم عابدي وثن
فطالما قد بروا بالجور أعظمنا ... بري الصناع قِداحَ النّبع بالسَّفَنِ
قوموا ببيعتكم ننهض بطاعتنا ... إن الخلافة فيكم يا بني حسن
ألست أكرمهم عوداً إذا انتسبوا ... يوماً وأطهرهم ثوباً من الدرن
وأعظم الناس عند الناس منزلة ... وأبعد الناس من عيب ومن

وهنا تغيرت الموازين.. وبات الواشي الباذل نفسه لصناعة الشحناء وإضرام نار العداء، وهو آمن الجنب قرير العين خائفاً رعديداً يخشى أن تدور عليه الدوائر.

فقد تغير وجه الرشيد وأقبل نحو عبد الله ينظر إليه بأعين يتطاير منها الشرر.

عبد الله والله الذي لا إله إلا هو وبأيمان البيعة إن هذا الشعر ليس لي رضي الله عنه وإنما هو لشاعرهم والمتعصب لهم المسمى سدُيف رضي الله عنها

يحيى: والله يا أمير المؤمنين ما قاله غيره، وما حلفت كاذباً ولا صادقاً بالله قبل هذا،ولكن يا أمير المؤمنين دعني أُحلِّفه.

هارون رضي الله عنهم لقد حلف ونفى ذلك عن نفسه رضي الله عنها

يحيى: يا أمير المؤمنين، إن الله إذا مجَّده العبدُ في يمينه إستحيى أن يعاقبه، أُحلِّفه بيمين ما حلف بها أحد كاذباً إلا عوجل.

هارون رضي الله عنهم فحلفه رضي الله عنها رضي الله عنها

يحيى: قل برئت من حول الله وقوته، واعتصمت بحولي وقوتي وتقلدت الحول والقوة من دون الله، استكباراً على الله واستغناءً عنه واستعلاء عليه إن كنت قلت هذا الشعر.

ارتعدت فرائص عبد الله وتراجع إلى الوراء، وهو يقول. لا لا. لن أحلف بمثل هذه اليمين.

فالتفت هارون إلى الفضل بن الربيع فقال:

رضي الله عنها يا عباسي رضي الله عنها رضي الله عنها ما له لا يحلف إن كان

صادق رضي الله عنه هذا طيلساني علي رضي الله عنه وهذه ثيابي لو حلفني عليه السلام نها لي لحلفت رضي الله عنها

فتقدم الفضل بن الربيع نحو عبد الله بن مصعب، ورفسه بقدمه من ورائه وقال له: احلف ويحك..

فتقدم عبد الله في خوف باد على وجهه فردد ألفاظ اليمين يكذبه كل عضو من جسمه.

فاقترب يحيى بن عبد الله نحو عبد الله بن مصعب وضرب بيده على كتفه وقال له:

رضي الله عنها قطعت والله عمرك رضي الله عنه والله لا تفلح بعدها رضي الله عنها

(٢)

بعد أن خرج يحيى بن عبد الله من مجلس هارون ورجع إلى البيت الذي يقيم فيه أخذ يعد طعامه في محبسه ليقوم إلى صلاته، فدخل عليه يحيى بن خالد البرمكي، فجلس إليه يحادثه ويستدرجه في الكلام لعله يدله على بعض أصحابه، فقد لمس يحيى بن خالد غضب الرشيد

والشكوك التي صارت تراوده في ولـده الفـضل، فـأراد أن يعـبر عـن ولائه لهارون بأن يكشف له عن بعض أصحاب يحيى الـذين كـان قـد أجهد هارون نفسه في البحث عنهم.

فأخذ يحيى بن عبد الله كتاباً مختوماً كان قد أعده وقال ليحيـى بـن خالد: يا أبا علي .. إن لصاحبك هذا فينا إرادة، وهـذه أمانـة الله بينـي وبينك أن تكتم على هذا القرطاس حتى تمضي إرادة الله فينا، فـإذا كـان ذلك فناول هارون هذا القرطاس.

فأخذه يحيى بن خالد وخرج ... وإذا بمسرور يدخل على يحيى بن عبـد الله فالتفـت إليـه يحيـى ولم يكلمـه، فجعـل مـسرور ينظـر إليـه في ازدراء، ثم خرج وأغلق الباب.

ولم تمض لحظات حتى عاد مسرور مسرعاً يحمل قِدْراً يساوي قِدْر يحيى بن عبدالله.

مسرور: إن أمير المؤمنين يقول: أطعمنا من قِدْرك.

فأخذ يحيى القِدْر وأفرغه في قِـدْر هـارون وأسرع بـه مـسرور إلى هارون، وعاد يحيى يعد طعامه من جديد.

فلما أقبل مسرور بالطعام ووضعه بين يدي هـارون جعـل هـارون يأكل منه حتى أكمل ما في القِدْر.

هارون يا مسرور عد إليه وقل له فليزدنا

مسرور والله يا مولاي لقد فرغ قِدْره في قِدْرك ولم يبق لنفسه شيئاً

هارون يا مسرور اذهب وائتني بمائة خِلْعَة من خالص ثيابي المخيطة وائت يحيى وقل له طعمتنا من طعامك ونكسوك من كسوتنا فإن بى ن يأخذها فاعرضها عليه قطعة قطعة

وأقبل مسرور نحو سجن يحيى بن عبد الله.

مسرور هذه من خالص ثياب مير المؤمنين هدية لك بما طعمته

يحيى بن عبد الله قل له هذا من لباس هل العافية ولست نا من هله فليس بي إليها

حاجة رضي الله عنها

مسرور رضي الله عنه إنه قد عليه السلام حب عليه السلام ن تنظر إليها رضي الله عنها رضي الله عنها رضي الله عنها

وأخذ مسرور يعرضها عليه قطعة قطعة .. إلا أن يحيى بن عبد الله انهمك في مناجاته فلم ينظر إليها ولم يحفل بها.. وإنما قال له: اصنع ما بدا لك يا مسرور..

وبعد أن أكمل يحيى بن عبد الله مناجاته قال لمسرور:

رضي الله عنها يا عليه السلام با هاشم عليه السلام رى عليه السلام مير المؤمنين قد ذكرني فإن رعليه السلام يت عليه السلام ن تخبره بما عليه السلام نا فيه من الضيق وتسأله الصفح والتفضل فافعل رضي الله عنها

مسرور رضي الله عنه لا ولا كرامة لك رضي الله عنها رضي الله عنها لست لذلك بأهل مع خروجك على عليه السلام مير المؤمنين وتمنيك ما ليس لك رضي الله عنها

ثم حمل مسرور الثياب وخرج عائداً إلى سيده وولي نعمته...فلما

دخل على هارون قال له:

رضي الله عنهما ما الخبر يا مسرور رضي الله عنه لماذا عدت بالثياب رضي الله عنه

فجعل مسرور يذكر له القصة .... فدمعت عينا هارون وبكى حتى ابتلت لحيته..

مسرور رضي الله عنه يا مولاي لقد طلب مني عليه السلام ن عليه السلام طلب له منك العفو والتفضل رضي الله عنهما

ولم يكد مسرور يكمل كلمته الأخيرة حتى تغير المشهد رأساً على عقب ... وجفت الدموع وذهبت لمسات الحنان والرقة والتفت إليه هارون وقد بانت على وجهه علامات الغضب..

هارون رضي الله عنه وماذا قلت له يا عليه السلام حمق رضي الله عنه

مسرور: لقد رفضت ذلك.

هارون: أحسنت أحسنت .. بارك الله فيك.

وفي نفس اللحظة دخل الفضل بن الربيع متغير الوجه.

هارون: خيراً يا فضل .. هل هناك ما أزعجك؟

الفضل بن الربيع: أما علمت يا مولاي ما حدث لعبد الله بن مصعب؟

هارون: هل أصابه مكروه؟

الفضل:لم يخرج من مجلسك حتى عدى به الجذام .. فلم يمض ثلاثاً حتى قُطِّعت أوصاله ومات، فصليت عليه مع بعض أهله وخرجنا نريد أن نواري جسده، ووضعناه في قبره ووضعنا عليه اللِّبْن وأردنا دفنه فخسف به القبر فلم نرَ قراره فوضعنا التراب، ثم أحمال الحطب فلم يبق شيء إلا وهوى في القبر وخرجت من قبره غبرة عظيمة، فلم نر من حل إلا تغطية القبر بالخشب.

هارون رضي الله عنه عليه السلام رأيت يا عباسي ما عليه السلام سرع ما عليه السلام دين ليحيى من ابن مصعب رضي الله عنهم رحمهم الله

لقد كانت العبر تتوالى مظهرة فضل يحيى بن عبد الله ومنذرة للظالمين عاقبة ظلمهم، ولكن هيهات أن يعتبر الظالمون وقد عميت بصائرهم {فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي

(٣)

وهناك في المدينة كان بكار بن مصعب يحيك المؤامرات ليقضي عليكل شيء يتعلق بالإمام يحيى بن عبد الله، فقد جمع بعض من لهم هوى وأمرهم أن يدّعوا ديناً لهم على يحيى بن عبد الله، فادّعوا ذلك في مجلسه.

فأمر من ساعته بعض جنوده أن يذهبوا للحجز على دار يحيى بن عبد الله ... فذهبوا إلى الدار وجعلوا يطرقون الباب بعنف، فاتجهت زوجة يحيى بن عبد الله نحو الباب وفتحت فإذاهم جنود الأمير .. فاعترتها الدهشة.

وقبل أن تسأل عن سبب مجيئهم بادرها كبير الجند قائلاً: اخرجي أيتها المرأة من الدار فقد استحق.

ولم يمكنوها من أن تجيب أو تتكلم حتى اقتحموا الدار

وأخرجوها من الدار مع ولديها -صالح وعبد الله- اللذين كانا معها في الدار ولا زالا صغيرين لم يبلغا الحلم.

أما أخوهما الأكبر -محمد- فكان قد خرج للصيام في سويقة لأبيه...فأقبل عليه الجنود هو الآخر وأخذوه إلى بكار، فأمر بسجنه واثقل عليه الحديد وجعل بكار يرسل الرسول تلو الرسول في التشديد عليه.

فقال محمد لرسول بكار قل لصاحبك:

إني من القوم الذين تزيدهم قسواً وصبراً شدة الحدثان

فلما أُخبر بكار بذلك، أرسل من سَمَّ أخويه صالح وعبد الله فماتا من أثر السم .. ثم أرسل في طلب محمد بن يحيى، فلما دخل إلى مجلسه قال له بكار: من يكفلك حتى أُطلِقَك؟

محمد بن يحيى رضي الله عنهم جماعة من ولد عليه السلام بي طالب رضي الله عنهم

فأجابه أحد جلساء بكار ممن كان في المجلس من بني

هاشم قائلاً: لسنا نكتفل لمن عصى أمير المؤمنين.

فلما سمع محمد ذلك وثب واقفاً وهو ينشد:

وما العود إلا نابت في أرومة أبى صالح العيدان أن تتفطرا

بنو الصالحين الصالحون ومن يكن لآباء سوء تلقهم حيث سيرا

فقال بكار لجنوده: ردوه إلى سجنه، فمثله لا يستحق الحياة.

وبالفعل أعيد محمد بن يحيى إلى السجن ولقي ربه وهو في سجن بكار بن مصعب.

فمهلاً مهلاً أيها الظالمون .. فإن لنا عوداً عند الإله لقاء ..

الفصل الثالث

(١)

عادت الكآبة والضيق إلى صدر هارون ولما لم تسعه غرف القصر الواسعة صعد إلى السطح.

ودخل يحيى بن خالد البرمكي مجلس الخليفة، فجعل يتلفت يميناً وشمالاً فلم يجد أحداً، فسأل أحد الحرس: أين الخليفة؟..

الحارس: صعد إلى سطح القصر.

يحيى بن خالد: هل عنده أحد؟

الحارس: لا إنه يجلس وحيداً.

صعد يحيى بن خالد وأقبل نحو هارون حتى صار مقابل وجهه فألقى عليه السلام .. ثم استأذنه في الجلوس فأذن له.

يحيى بن خالد: لم أعهد منك يا مولاي مثل هذه الجلسة هل هناك ما يضايقك؟!

هارون: لقد ضاق صدري بأمر يحيى بن عبد الله، فشغلني عن كل لذة وأفسد علي كل راحة.

يحيى بن خالد كيف ذلك يا مولاي وهو بين يديك والله لو شئت أن تحصي عليه أنفاسه لفعلت

هارون علم علم ذلك يا يحيى ولكن إذا كان يحيى هنا فسبعين من صحابه خارج قبضتي وكلٌ منهم يرى رأيه ويسير على نهجه

يحيى بن خالد رضي الله عنه نا عليه السلام ذهب إليه وعليه السلام راوده وعليه السلام عده بالخلاص إن عليه السلام خبرني عنهم رضي الله عنها رضي الله عنها

هارون: لا أظنك تظفر منه بشيء.

يحيى بن خالد: أين هو الآن؟

هارون رضي الله عنه إذهب وعليه السلام نظر إلى عمق الدار رضي الله عنها

فقام يحيى فنظر فإذا بصيص نورٍ ينبعث من هناك، فعاد إلى هارون.

هارون رضي الله عنه ماذا رعليه السلام يت رضي الله عنهم

يحيى رضي الله عنه بياضاً ينبعث منه النور رضي الله عنها

هارون رضي الله عنه ذاك هو يحيى بن عبد الله يتوضأ للعشاء فإذا صلى العشاء سجد إلى طلوع الفجر فيصلي بذلك الوضوء صلاة الفجر رضي الله عنها

فأطرق يحيى بن خالد البرمكي يفكر ويقول في نفسه: أتكون أنت المبتلى بدم هذا الرجل؟.

وتحرك هارون حركة سريعة وكأنه قد وجد شيئاً مفاجئاً

.. فأفاق يحيى بن خالد من تفكيره على حركة الخليفة..

يحيى البرمكي ما الأمر يا أمير المؤمنين

هارون: لقد أدركت طريقة أعرف بها أصحاب يحيى بن عبد الله، اذهب يا يحيى وائتني بالقضاة وأهل الفتوى ممن شهدوا على أمان يحيى.

يحيى بن خالد يا مولاي هذا ضوء الفجر قد طلع فتنتظر بهم حتى الصباح

هارون لا بأس لا بأس بذلك

* * *

وفي صباح اليوم الثاني اجتمع عند الخليفة الوزراء والفقهاء وبعض من حضر من أهله، فأخرج هارون الأمان... وأمر بإحضار يحيى بن عبد الله.

فحضر مقيداً بالسلاسل حتى وقف بين يدي هارون والمجلس يزدحم بالقضاة والوجهاء...

هارون رضي الله عنه يا قوم رضي الله عنه لقد علمتم ما كان بيني وبين يحيى وعليه السلام صحابه من الأمان رضي الله عنها رضي الله عنه ومنذ ذلك الحين لم عليه السلام عرف عليه السلام حداً من عليه السلام صحابه رضي الله عنه فكلما عليه السلام ردت عليه السلام ن عليه السلام خذ عدواً لي خفت عليه السلام ن يكون ممن عليه السلام منته مع يحيى فآخذه فينتقض الأمان رضي الله عنها

فالتفت الحاضرون إلى يحيى بن عبد الله يلومونه.

عليه السلام حدهم رضي الله عنهم لَ لما تذكر لأمير المؤمنين عليه السلام سماء عليه السلام صحابك لئلا يخطئ فيهم فيأخذهم وقد عليه السلام عطاهم الأمان فيأثم رضي الله عنها

يحيى بن عبد الله رضي الله عنهم إن عليه السلام راد عليه السلام مير المؤمنين عليه السلام ن يفي لي ولهم عرفني رعليه السلام يه في الوفاء رضي الله عنه فمتى عليه السلام خذ رجلاً من عليه السلام صحابي الذين عليه السلام خذت لهم الأمان عليه السلام خبرته حتى عليه السلام ستوفي عدد السبعين الذين عليه السلام عطاهم الأمان رضي الله عنه وإن لم يرد الوفاء لهم فكيف عليه السلام خبره بأسمائهم وعليه السلام دله على مواضعهم إذن

فأقبل القوم عليه يحاورونه ويعدونه الخروج من سجنه والسلامة له إن أخبر الخليفة بأصحابه ... وبالغوا في الكلام والترجي ثم الوعيد.

يحيى بن عبد الله: والله لو كانوا تحت قدمي ما رفعتها عنهم، فليفعل هارون ما بدا له أن يفعل.

وهنا يئس القوم وتفرق من في المجلس وقد اقتنعوا أنهم لن يظفروا بشيء من يحيى بن عبد الله.

وأمر هارون بإعادة يحيى بن عبد الله إلى سجنه، وأمر بالتشديد عليه...وقد أضمر في نفسه التخلص من يحيى بن عبد الله مهما كانت النتائج..

(٢)

وبعد أيام دعا الخليفة هارون العلماء والفقهاء إلى مجلسه، وجمع معهم وجهاء قريش ... ثم أمر بإحضار يحيى بن عبد الله، فلما صار بين يديه...جعلوا يراودونه

في الكشف عن أصحابه وهو لا يكلمهم .. ثم أخرج يحيى لسانه فإذا بالسم قد أثر فيه وصار لسانه أسود مثل الفحمة .. فثارت ثائرة الرشيد وصاح فيهم قائلاً :

- والله ما أمرت في أمره بشيء وهو يوهمكم أني سقيته السم.

ثم إلتفت إلى مسرور وقال له: ويلك يا مسرور ماذا فعلت؟

مسرور عليه السلام نا سقيته لما عليه السلام رادك يا عليه السلام مير المؤمنين رضي الله عنها

وقبل خروج يحيى بن عبد الله من مجلسه أخذ هارون الأمان المكتوب ورماه إلى أحد أبرز علماء العصر وهو محمد بن الحسن وقال له:

رضي الله عنها انظر في هذا الأمان الفاسد رضي الله عنها رضي الله عنها

جعل محمد بن الحسن يتأمل في الأمان .. ثم رفع رأسه وقال: يا أمير المؤمنين لو كُلِّفت بكتابة مثله لما استطعت والله ما رأيت قط أماناً أصح منه وأوثق، فمن نقضه فعليه لعنة الله.

فلم يتمالك هارون نفسه حتى حمل دواة كانت إلى جواره فرمى بها نحو محمد بن الحسن فشج رأسه...وأخذ الأمان منه ورماه إلى غيره وهكذا، والجميع يصحح الأمان والخليفة يزداد غضباً ويتميز غيظاً.

وأدرك قاضي القضاة أبو البختري وهب بن وهب ما يريده الخليفة، فأخذ الأمان ونظر فيه ثم قال: صحيح ولكن فيه حيلة.

هارون ما هي

أبو البختري إن قال الفضل بن يحيى إنه نوى وقت ما أعطاه الأمان غير الوفاء فالأمان باطل

هارون والفضل يقول هذا دعوا الفضل بن يحيى ليحضر

فحضر الفضل بن يحيى وحضر معه أخوه جعفر.

هارون وهو يخاطب الفضل بن يحيى ليس إنما نويت بالأمان غير الوفاء

الفضل وكيف رحمه الله ما نويت إلا الوفاء

هارون رضي الله عنه ويلك عليه السلام ليس إنما نويت غير الوفاء رضي الله عنه

الفضل رضي الله عنه لا يا عليه السلام مير المؤمنين رضي الله عنها رضي الله عنها ما نويت إلا الوفاء رضي الله عنها

فنظر إليه هارون في غضب وصاح في وجهه حتى ملأ صوته أرجاء المجلس:

رضي الله عنها ويلك عليه السلام ليس إنما نويت غير الوفاء رضي الله عنه

الفضل: لا والله الذي لاإله إلا هو ما نويت إلا الوفاء يا أمير المؤمنين.

فنظر أبو البختري إلى الفضل بن يحيى وأخيه جعفر، وقد تغيرت وجوههما وأربدت ورمياه بأبصارهما .. فعرف الشر في وجهيهما، فتدخل ليحسم الموقف.

عليه السلام بو البختري رضي الله عنه يا عليه السلام مير المؤمنين ما تصنع بهذا رضي الله عنهم عليه السلام دع لي بسكين رضي الله عنها

فلما جاء أحد الغلمان بالسكين أخذها أبو البختري .. فقطع الأمان ثم قال: اقتله يا أمير المؤمنين ودمه في عنقي...!

كان يحيى بن عبد الله صامتاً لا يكاد يقوى على الكلام من أثر السم، فلما رأى ما رأى، انطلق لسانه لشدة غيظه من جرأة القوم، والتفت إلى أبي البختري قائلاً:

- يا دعي لقد علِمَتْ قريش أنك لقيط، وأنك تُدعى إلى غير أبيك، وأبوك الذي تدعي أبوته لم يصح له نسب في قريش، إنما هو عبد لبني زمعة، فأنت مدَّعٍ إلى دعي. وقد جاء في الأثر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن ((من ادعا إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه فليتبوأ مقعده من النار))، فكيف ترى حالك؟ وأنت مصر على الدعوة بعد معرفتك بالأثر ثم جُرأتك على الله واستخفافك بمحارمه وتخريق أمان أكدَّه جماعة من علماء المسلمين، فهب أن لا مراقبة من عندك، في رجاء ثواب ولاخوف عقاب .. فهلا سترت على ما يخفي ضميرك مما قد أبديته من هتك سترك وإبداء عورتك معاندةً لله ولدينه، وعداوة منك لله ولرسوله ولذرية رسول الله؟!

ثم التفت يحيى بن عبد الله إلى هارون فقال:

- يا هارون إتق الله وراقبه، فإنه قل ما ينفعك هذا وضرباؤه يوم يعض الظالم على يديه .. يقول: ياليتني لم أتخذ فلانا خليلاً، {يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ}

فلما صمت يحيى ...التفت هارون إلى الحضور فقال- في خبث ودهاء:

- انظروا ولايستحل أن يقول أمير المؤمنين.

يحيى بن عبد الله وما جزعُك من اسم سماكه عليه السلام بوك رضي الله عنه قد كان يقال لرسول الله صلى الله عليه وعليه السلام له وسلم يا محمد فما ينكر على الداعي له وقد سماه الله رسوله رضي الله عنها

فلما كثر الكلام وطال الحوار، أراد هارون أن يرمي بني برمك بيحيى بن عبد الله ويبتليهم بدمه .. فقال لجعفر بن يحيى البرمكي:

- يا جعفر قم وخذ يحيى بن عبد الله واجعله عندك حتى أطلبه.

ثم أمر هارون لأبي البختري بألف ألف وستمائة ألف، ومنع

محمد بن الحسن من الفتيا مدة طويلة.

ورجع محمد بن الحسن إلى داره وهو يتجرع كـؤوس الحـزن حتـى بلغ منزله وأخذ يبكي بكاء شديداً .. فقال له أحد أصحابه:

رضي الله عنهما يا سيدي ما يبكيك رضي الله عنهما عليه السلام تبكي على عليه السلام ن منعك الخليفة من الفتيا رضي الله عنه عليه السلام م تبكي من شجة في سبيل الله رضي الله عنه

محمد بن الحسن: لا والله .. ولكني أخاف أن أكون قد قـصرت في أمـر يحيى حين سكتُّ عما تكلم به قـاضي القـضاة فـأكون قـد شركـت في دمه.

(٣)

مضت مدة من الزمن وهارون لا يسأل عن أمر يحيى بـن عبـد الله، فلما اقبل موسم الحج وأراد هارون أن يحج بالناس في ذلك الموسم، مر على جعفر بن يحيى البرمكي ليتعرف على حاله.

هارون رضي الله عنهم ما خبر يحيى بن عبد الله يا جعفر رضي الله عنه

جعفر بخير وسلامة يا أمير المؤمنين فقد شفي من أثر السم

هارون وهو يهم بالانصراف ما طول حياته

فهم جعفر بن يحيى ماذا يقصد هارون وأدرك أن رضا هارون عنه وعن أهل بيته معلق بقتل يحيى بن عبد الله، فجعل يقلب الأمر باحثاً عن مخرج، فهو يعلم أن الخليفة إن عاد من حجه ويحيى بن عبد الله لازال حياً أنزل غضبه بالبرامكة[1].

---

(١) كانت سياسة هارون أن يسجن من يريد القضاء عليه في منزل منفرد ثم يوكله بأحد خدمه أو وزرائه فيسموه أو يقتلوه ثم يدعي أنه ما فعل ذلك ولا أمر به.

وقد فعل ذلك في غير واحد من أهل البيت كعبد الله بن الحسن بن علي بن علي زين العابدين فإنه أوكله إلى جعفر البرمكي فقتله واحتز رأسه وقدمه إلى هارون الرشيد مع بعض الهدايا أهداها إليه بمناسبة عيد النيروز!! وكذلك فعل أيضاً بالإمام موسى بن جعفر الصادق (ع) فإنه سلمه إلى أحد أعوانه يقال له السندي بن شاهك فاحتال في قتله بأن لفه في بساط وقعد الفراشون النصارى على وجهه حتى مات ثم ادخل عليه الفقهاء ووجوه بغداد يشهدون أنه مات!! فسلام الله عليهم أجمعين ولعن الله قاتليهم إلى يوم الدين. أ. هـ مصححه.

فجعل جعفر يحدث نفسه ويقول: وا أسفاه .. واشـقاوتاه .. كيـف أُبتليت بقتل يحيى بن عبد الله من بين سائر الخلق؟!

ومـــرت الليـــالي والأيـــام وجعفـــر مـــضطرب في أمـــر يحيى بن عبدالله، لم يذق للراحة طعماً منذ جاء الخليفة إلى داره..

وبعـد طـول تفكـير أضـمر جعفـر في نفـسه أن يقتـل يحيى بن عبد الله فأرسل من يحضره إليه.

فلما دخل يحيى بن عبد الله إلى مجلس جعفر .. أخـذ جعفـر يحادثـه وهو يهم أن يأمر بضرب عنقه..

ورأى الإمام تردد جعفر واضطرابه فأحس بالأمر .. ولكن لما كـان الإمام يحيى بن عبد الله يدرك أن بنـي برمـك لا يريـدون قتلـه وأنهـم مرغمون على ذلك خشية سخط هـارون علـيهم، أشـفق الإمـام عـلى جعفر أن يُبتلى بدمه..

فأطرق الإمام لحظات يفكر ثم رفع رأسه وقال:

رضي الله عنهما اسمع مني رضي الله عنهما عليه السلام صلحك الله رضي الله عنهما شيئاً يكون

لك فيه السلامة في الدنيا والآخرة عطيك
من العهود والمواثيق ما تسكن إليه نفسك إنك إن
تركتني خرجت حتى دخل بلاد العجم ولا
خبر حداً بإسمي ولا نسبي إلا ن ذكر
لهم ني رجلٌ من المسلمين جنيت جناية
فخفت على نفسي فلحقت ببلادهم فإن قتلت
كان قتلي على يد مشرك وإن منت فلم
قتل لم خرج من بلادهم ما دام صاحبك
في الحياة يقصد هارون وإن مت
قبله رجوت ن يقبل الله عذري ويعلم ني
لم خت غفر الله لهم ر دار الشرك على دار الإسلام
إلا نه حيل بيني وبين ذلك في ني فررت
من العذاب و القتل فإن رمت
وفقك الله ن لا تعجل وتنظر فيما سألتك وتعرضه
على قلبك فإنك إن كنت محتاجاً إلى رضى هارون
فإنك محتاج إلى رضى الرحمن فانظر لنفسك قبل

يوم الحسرة والندامة رضي الله عنه فإن نعيم الدنيا وشيكاً سيزول عنك وعن صاحبك رضي الله عنه فاشتر من الله نفسك بإحياء نفس من ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله عليهم السلام وسلم تستوجب بذلك عند الله الزلفى وحسن المآب رضي الله عنهم وحذار عليهم السلام ن تلقى الله بدمي مع معرفتك بأني محرج مظلوم رضي الله عنه ولا ناصر لي إلا الله رضي الله عنه وكفى بالله من الظالمين منتقما رضي الله عنها

فلما سمع جعفر ما تكلم به يحيى بن عبد الله وجعل يفكر مدة ثم التفت إلى الحارس وقال له: خذ يحيى إلى سجنه.

* * *

كانت كلمات الإمام قد أيقظت ضمير جعفر، وأجلت عنه العمى وأعادته إلى جادة الطريق ليعيد النظر في الأمر بشيء من الرويّة والتفكير.

فلما جن عليه الليل وخلا بنفسه خرج إلى سجن يحيى بن عبد الله، فلما دخل عليه اقترب منه وجلس إلى جواره.

جعفر إن كل امك قد وقع في قلبي رضي الله عنه وإن قبلي للن اس مظالم كثيرة وإن لي من المظالم الكب ار والذنوب العظام الموبقات م ا ل ا عليه السلام طمع في النجاة معه والمغفرة رضي الله عنها

يحيى بن عبد الله رضي الله عنه ل ا تفعل فإنه ل ا ذنب عليه السلام عظم من الشرك وقد قال الله تعالى في محكم التنغفر الله لهم زيل للك افرين الذين عليه السلام سرفوا في الشرك وفي معاداة النبي وقتل عليه السلام صح ابه {قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ الله إِنَّ الله يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ} رضي الله عنهم فأمرهم ب الإن ابة والتوبة والله تب ارك وتعالى يغفر لمن ت اب وإن عظم جرمه رضي الله عنها

جعفر رضي الله عنه افتضمن لي المغفرة إن عليه السلام ن ا خليتك رضي الله عنهم

يحيى بن عبد الله رضي الله عنه نعم عليه السلام ضمن على شريطة رضي الله عنها

جعفر رضي الله عنه وم اهي رضي الله عنهم

يحيى بن عبد الله رضي الله عنه تتوب من كل ذنب عليه السلام ذنبته بينك

وبين الله ثم لاتعود في ذنب عليهالسلام بدأ رضي الله عنها وعليهالسلام ما الذنوب التي بينك وبين الناس فكل مظلوم ظلمته عليهالسلام ن ترد ظلامته عليه رضي الله عنه فإنك إن فعلت ذلك وعليهالسلام ديت الفرائض التي لله عليك غفر الله لك وعليهالسلام نا الضامن لك ذلك رضي الله عنها

جعفر رضي الله عنهم فإني قد عزمت على إخراجك من سجنك على عليهالسلام ن تعطيني عهود الله ومواثيقه عليهالسلام ن تلحق ببلاد الروم رضي الله عنه وتقيم فيها رضي الله عنه ما دام هارون حي أرضى الله عنه ولاتخبر عليهالسلام حداً باسمك ولا نسبك ولا تصطحب عليهالسلام حداً رضي الله عنها

يحيى رضي الله عنهم لك ذلك رضي الله عنها رضي الله عنها إلا عليهالسلام ن لا عليهالسلام جد سبيلاً رضي الله عنها

ثم أعطاه جعفر منشوراً كي لا يتعرض له أحد وأطلقه ليلاً على ان ينطلق من ساعته.

* * *

ولما خرج يحيى بن عبد الله من عند جعفر ... قام وكتب رسالة إلى هارون بخط يده، وأعد لها رسولاً خاصاً ليحملها إلى الديار المقدسة ... فوافى الرسول هارون وهو في مكة، فنظر هارون في الرسالة فإذا هي:

«إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد أبقاه الله وأعزه .. من خادمكم جعفر بن يحيى البرمكي .. لقد أرحتكم من عدوكم بقتله، فاستبشروا خيراً».

فما قرأ هارون الرشيد الرسالة سر سروراً عظيماً، وأعلن في الناس وفاة يحيى بن عبد الله.

الفصل الرابع

(١)

كان يحيى بن عبد الله قد غيّر لباسه وتنكر وجعل يسافر الليل وجزءاً من النهار، وقد غير اسمه وأنكر نسبه.

ولما أشرف على حدود الدولة الرومية جعل يبحث عن ثغر خال من الحراسة ليتسلل منه ...فلما أدرك مطلبه واقبل يريد الإجتياز إذا بصوت مرتفع ينادي عليه من مكان منعزل:

- إلى أين يا رجل؟ توقف...!

التفت يحيى فإذا بكوكبة من الفرسان يقبلون نحوه

مسرعين كان يظن يحيى أنهم من الروم، ولكنهم عندما اقتربوا منه علم أنهم من المسلمين.

فحاول أن يجد مفراً، ولكن هيهات أن ينجو الراجل من الفارس، فكيف إذا كان المطارد كوكبة من الفرسان.

كان والي تلك الثغور هو محمد بن خالد البرمكي -عمَّ جعفر بن يحيى البرمكي .. فلما أدخل عليه يحيى بن عبدالله عرفه ببعض ملامحه، بعد أن كانت السنوات التي قضاها في السجن والتعذيب .. قد أذهبت محاسن وجهه.

محمد بن خالد رضي الله عنه نت يحيى بن عبد الله عليه السلام

يحيى بن عبد الله: من يحيى بن عبد الله هذا؟ أنا رجل ضعيف من المسلمين، أُشتد عليه في التهديد والضرب ونزل به من البلاء ما لا تعلم.

محمد بن خالد: لكن لا نتركك حتى نعلم من أنت؟ ومن أين جئت؟ وأين تريد أن تذهب؟

فأخفى الإمام نسبه وأنكر أن يكون هو يحيى بن عبد الله ...

فـأمر محمـد بـن خالـد جنـوده أن يـسوقوه إلى الـسجن ويقيـدوه بالسلاسل والقيود.

وما إن خرج الإمام من مجلسه حتى جمع محمد بن خالد بعض أصحابه وجعل يشاورهم في الأمر.

محمد بن خالد: أخر عهدي بيحيى أن هارون سلمه لإبن أخـي جعفـر ليقتله، فلعل جعفر رقَّ ليحيى بن عبد الله فاطلقه وأوهـم الخليفـة أنه قد قتله، وأخاف إن علم الخليفة بالأمر أن تكون نكبة للبرامكـة فما ترون الرأي يا قوم؟

فجعل كل منهم يدلي برأيه .. حتى استقر رأيهم على أن يحملوا يحيى بن عبد الله إلى الخليفة في مكة، قبل أن يعلم جعفر بن يحيى بالأمر فيحتال عليهم ليخفي الخبر.

* * *

فخرج محمد بن خالد وجماعة على سبعة جمال، يطوون الفيافي والقفار حتى وصلوا إلى مكة في ساعة من ساعات الليل البهيم -فأقبل محمد بن خالد على دار الفضل بن الربيع.

الفضل بن الربيع: أتركت عملك وجئت إلى هنا؟!

محمد بن خالد: إن الأمر الذي جئت له أعظم من أن يذكر معه عمل.

الفضل بن الربيع رضي الله عنه وما هو

محمد بن خالد رضي الله عنه هذا يحيى بن عبد الله معي رضي الله عنهما

الفضل بن الربيع: قد مات يحيى.

محمد بن خالد: هذا يحيى معي أعلم أمير المؤمنين بمكاني، ولا يعلم بي أحد فإنه إن علم بي جعفر خفت أن يغتالني.

* * *

كان الفضل بن الربيع خصماً للبرامكة يبحث عن سقطات البرامكة ليسقطهم في عين الخليفة، فلما سمع ما قاله محمد بن خالد، عظم سروره وأدرك أن مراده قد حصل.

فأسرع إلى الخليفة فأخبره بأمر يحيى، فاشتد قلق هارون وخاف أن يكون في هذا الأمر نهاية ملكه، فهو بعيد عن مركز الخلافة، والبرامكة إن شعروا بالخطر فلن يبالوا في تحويل الملك عنه.

فأرسل الخليفة قائد الجيش (هرثمة) إلى خاصته وموضع سره، إلىالفضل بن الربيع وآخرين وجمعهم وعرض عليهم الأمر وطلب المشورة.

هرثمة يا عليه السلام مير المؤمنين إنك في موسم مثل هذا ولا عليهم السلام من إن عليه السلام حس جعفر بأمر يحيى وخيانته فيه استقل وعمل في صرف الخلافة رضي الله عنها

هارون: فما الرأي؟

هرثمة: أن تضرب عنق هذا القادم عليك وكل من معه من الغلمان والحشم حتى لا يخرج خبره، وتطوي بيحيى المنازل إلى بغداد، وتظهر لجعفر من اللين والكرامة أضعاف ما كان عندك، فإذا

دخلت بغداد، قتلت جعفر وجميع البرامكة، واستبدلت بهم غيرهم.

وبالفعل بادر هارون بإرسال رسالة شكر وهدية عظيمة إلى جعفر على حسن صنيعه بقتل يحيى بن عبد الله وفهمه لمقصد أمير المؤمنين، وأمر هارون بإدخال يحيى بن عبد الله عليه فدخل عليه حتى وقف بين يديه.

هارون: ألم يكفك ما عملت بي حتى أفسدت عليّ وزرائي والله لأقتلنك قتلة تحول بينك وبين إفساد أحد عليّ.

يحيى بن عبد الله: اتق الله يا هارون وراقبه، فإنك عن قليل لاقيه وهو سائلك عن نقض ما أعطيتني من العهود والمواثيق المأخوذة عليك، فلا تكن ساهياً عن عقاب الله، غافلاً عن وعده ووعيده كأنك لا ترجو من الله ثواباً ولاتخشى عقاباً، تعمل أعمال الفراعنة، وتبطش بطش الجبابرة، خليلك ووزيرك من اتبع هواك في معصية الله، وعدوك من دعاك إلى طاعة الله، حسبك يا مغرور، ما احتملت من

الأوزار، فارجع إلى الله، فإنه يقبل التوبة عـن عبـاده، ويعفـو عـن السيئات ويعلم ما تفعلون.

هارون رضي الله عنه اصمت يا يحيى رضي الله عنه رضي الله عنه

ثم التفت هارون إلى مسرور وقال له:

رضي الله عنه يا مسرور خذه عندك حتى عليه السلام طلبه رضي الله عنه

وأمر هـارون النـاس بـالتجهز للسفر إلى بغـداد، فجعـل يطـوي الفيـافي والقفـار لا يُمكِّـن أحـداً مـن الاسـتراحة أو النـزول.

وما إن بلغ بغداد ونزل في قصره حتـى أصـدر أوامـره إلى حـراس القصر بعدم إدخال أحد عليه وأرسل في طلب يحيى بن خالد البرمكي وابنيه جعفر والفـضل .. فلـما دخلـوا عليـه في مجلـسه .. أمـر بجعفـر والفضل ابني يحيى بن خالد فقتلا . وَجَرَّدَ أباهم من جميع مـا في يـده، وأمر بسجنه وتقييده بالقيود والسلاسل وجعل يتتبع كل من عرف لـه ولاء للبرامكة فيرسل به إلى السجن.

وأنزل الخليفة بالبرامكة أشد العقوبات .. فأزال عزهم، واستصفى أموالهم، وشرد أتباعهم، فمزقهم شر تمزيق وفعل بهم الأفاعيل.

* * *

كان هارون قد أمر بيحيى بن عبد الله فوضع في سجن ضيق لا يخرج منه وأبقاه فيه زماناً لا يسأل عنه.

وفي أحد الليالي خرج هارون على برذون له، فأقبل على السجن.

هارون عليه السلام ين يحيى بن عبد الله رضي الله عنه

الحرس رضي الله عنهم ا هو ذا في البيت الذي سجن فيه يا مول اي رضي الله عنها

هارون: عليّ به..

فلما مثل بين يديه جعل يعنفه ويسبه، ثم إلتفت هارون إلى الحرس فقال: اضربوه مائة سوط.

يحيى: اتق الله يا هارون .. سألتك بقرابتي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا ما كففت عني.

وجعل الجنود يضربونه بالسياط وهو يستغيث، وهارون لا يلتفت إليه.

يحيى سألتك بقرابتي منك

هارون لا قرابة بيني وبينك

فلما فرغ الجنود من ضربه أُعيد إلى سجنه وهو في حالٍ ترق لمثله قلوب الجبابرة وتلين لمثله الصخور الصماء.

وتأبى قلوب الفراعنة إلا تعنتاً وكفراً.

هارون كم جريتم عليه من الطعام

الحرس: أربعة أرغفة وثمانية أرطال من الماء.

هارون: إجعلوه على النصف.

* * *

ومضى هارون عائداً إلى لهوه وسكره ومجونه، تاركاً ولي الله في قبر مظلم قذر لا يستطيع حراكاً لضيق مخدعه ...إن نادى لم يُجب، وإن استرحم لم يرحم ... تسيل جروحه دماً فلا يجد من يضمدها .. وتمر

عليه الساعات والليالي والأيام وهو في سجنه المظلم فلا يدري أليل يمر عليه أم نهار.

فمن للجريح ومن للسجين ... فالأهل قد قتلوا ... والناصر قد غاب ...والثياب رقيقة ممزقة ... وبالدماء ملطخة ... والأجسام نحيلة متورمة... فمن للضعيف يشفق عليه ... ومن للمظلوم ليرفع ظلامته ... ومن للحزين يواسيه في حزنه.

وامحمداه ... وافاطمتاه ... واعلياه...

يارب الأرباب ويا عالم بمن غيب في غياهب السجون .. أنت لا سواك قادرٌ على تخليص ونصرة أولياءك. فعجل الفرج.

* * *

وعاد هارون بعد أيام يسأل عن يحيى بن عبد الله فأُخرج إليه محمولاً ... فما رق لسوء حاله وقلة حيلته وانتحال جسده.

هارون رضي الله عنهما وهو يلتفت إلى عليه السلام حد الحرس رضي الله عنهم اضربه مائة

فجعل الإمام يسترحم هارون، وهارون يعرض عنه إعراض الجبابرة، فلما فرغوا من ضربه، أمر به فأعيد إلى سجنه...

ثم سأل هارون حرس السجن: كم أجريتم عليه؟

الحرس رغيفين و عليه السلام ربعة عليه السلام رطال ماء رضي الله عنها

هارون إجعلوها على النصف رضي الله عنها

وأخذ الظالم يتلذذ بممارسة جريمته يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة .. ثم عاد للمرة الثالثة .. فأمر بضرب الإمام مائة سوط وأمر بالطعام أن يخفف إلى النصف.

ومرت الأيام والإمام مع كل لحظة تمر يتجرع كؤوس المعاناة ألواناً ليرقى في مصاف الأولياء والصديقين ألف درجة، ويزداد خصمه وسجانه في أدراك جهنم توغلاً وإنحطاطاً.

فرويداً رويداً ...أيها الظالمون، فإن بعد الدنيا آخرة، وبعد العمل

حساب، وبعد الظلم عدل، وبعد أحكام البشر حكمٌ لرب البشر.

(٢)

مضت الأيام، والشهور والإمام في سجن هارون، والناس لا يعلمون من أمره شيئاً إلا أن جعفر بن يحيى قد قتله.

واضطر هارون للسفر إلى خراسان فأمر بإخراج يحيى من محبسه وقد تغير لونه وذهبت محاسن وجهه وبلي جسده .. حتى إن أقرب الناس له لو رآه لأنكره.

فحمله معه في موكبه . وجعله في معزل عن الموكب لا يصل إليه أحد.

فلما بلغ بلاد الري ونزل بقرية تسمى (أرنيوبة)... دعى خادمه مسرور.

هارون رحمه الله يا مسرور رضي الله عنه إذهب إلى مقابر هذه البلدة وابحث عن من يحفر لك قبوراً بلا لحد يكون طوله كذا وعرضه كذا رضي الله عنه

فأسرع مسرور لتنفيذ الأمر وهو لا يدري ماذا يريد هارون؟! لكنه اعتاد أن ينفذ الأمر دون أن يسأل: لماذا؟.

فاستأجر لتلك المهمة جماعة من الحفارين فلما انتهوا من الحفر أمرهم بالانصراف فارتاب الحفارون في الأمر، وانصرفوا وقلوبهم مليئة بالشك...

حدهم ي ا قوم والله م ا حفرت قبراً بهذا ال اتس اع وم ا علمت في الإسل ام قبوراً بل ا لحد

الث اني والغريب ه ل ا جن ازة مع القوم

خر ل ا ظنهم يريدون إل ا ن يضعوا فيه ا شيئاً

الأول ي ا قوم لكأني ب الفرصة قد سنحت وقد تى اليوم الذي نكون فيه من غنى الن اس

الثاني: ماذا تقصد؟

الأول: اقصد أنهم لا شك يدفنون فيها أموالاً.

ثالثهم: إذاً نكمن لهم بين الأشجار القريبة هذه الليلة لنرى ماذا يفعلون.

وأجمع أمرهم على ذلك...

فلما انتصف الليل، وشمل الأحياء والأموات بظلامه...استدعى هارون مسروراً وأمره أن يعد له بغلين وأن يحمل يحيى عبد الله مقيداً على أحدها، وأن يحمل على الآخر تابوتاً كبيراً، كان قد أمر بتجهيزه.

وحمل معه بعض خاصته ثياباً بيضاء وركب هارون ومسرور وأقبل خواص هارون يسوقون البغلين حتى أقبلوا على المقابر.

* * *

كان الإمام لا يدري ماذا يدبر له؟ .. يركب متى شاءوا وينزل متى شاءوا ...لا ينفك لحظة عن ذكر الله وقراءة القرآن.

فلما اقترب موكبهم من المقابر أسرع أحد الجند يركض ويصيح: خذوه، ليوهم من كان هناك أنه قد رآه فيفر.

فلما أمنوا إلى خلو المكان ... أشار هارون إلى التابوت أن يوضع في إحدى الحفر.

وأمر بيحيى أن ينزل من فوق الحمار وهنا أدرك الإمام ما يراد أن يفعل به .. فجعل يقول لهارون:

- اتق الله .. اتق الله يا هارون! أما يشفيك قتلي دون عذابي؟ أي درك لك في عذابي؟

هارون عليه السلام إن الملك عقيم يا يحيى رضي الله عنها إن الملك عقيم رضي الله عنها

يحيى عليه السلام ناشدك الله والرحم اقتلني ولا تعذبني رضي الله عنهم لا تدفني حياً يا هارون رضي الله عنهم وعاجلني بالقتل قبل دفني رضي الله عنها

أين أصحاب القلوب الرحيمة؟ أين من يفدي ذوي القرابة؟

أين من يرعى لرسول الله حرمته؟ ... أين من يجيب المستغيث؟

أين أصحاب الضمائر؟ .. أما من قلب رقيق؟ .. أما من

ضمير حي؟.

أيها الليل البهيم .. أيها الثرى الصامت .. اشفق على أحفاد أحمد حيث لا شقيق لهم ولا راحم.

* * *

وأدخل الإمام في التابوت وأغلق عليه وشد بالسلاسل كي لا يستطيع أحد فتحه.

وبدأ هارون وزمرته يهيلون عليه التراب ليذهب إلى غير رجعة.

وجعل الهواء ينفذ شيئاً فشيئاً وتستعد الملائكة لاستلام روحه الطاهرة..

وولى الخليفة عائداً مع زمرته بعد تسوية جميع القبور المحفورة.

وهناك بين أغصان الشجر الكثيفة كان جماعة من الحفارين قد تحولوا إلى أخشاب لا حراك بها.

فأمام هذا المشهد الخيالي... والجريمة التي تفوق كل تصور ... بهت الجميع وتجمدت الدماء في العروق واشرف بعضهم على مفارقة

الحياة لشدة الخوف والمفاجأة.

عليه السلام حدهم رضي الله عنهم عليه السلام يها الإخوان رضي الله عنهم والله لو لم نحضر رضي الله عنهم ما كان علينا من دمه شيء رضي الله عنهم وإن عليه السلام غفلنا بعد عليه السلام ن رعليه السلام ينا وحضرنا كنا شركاء دمه فأسرعوا يا قوم لنخرجه قبل عليه السلام ن يختنق رضي الله عنها

فانطلقوا مسرعين نحو القبر وجعلوا يحفرون بسرعة مذهلة.

كانت ضربات المساحي والمعاول تتسابق مع نـزعات الموت ... فالهواء قد انتهى .... والجسم يدخل في غيبوبة الإغماء قبل أن يلفظ الإمام آخر أنفاسه. ظهر التابوت للحفارين.... وصارت ضربات معاولهم تقع عليه ... ولكن الإمام كان قد دخل في الغيبوبه، فلم يعد يحس بشيء.

ظن الحفارون أنهم قد وصلوا إلى مرادهم بظهور التابوت ... ولكنهم رأوا ما أذهلهم .. فالتابوت محاطٌ بالسلاسل والأقفال ... كاد اليأس أن يتمكن من قلوبهم لولا أن أحدهم -بضربة قوية- حطَّم أحد حلقات السلسلة.

فأسرع القوم إلى فتح التابوت فإذا هم أمام جثة هامدة شاحبة اللون..

وأحس جميعهم بخيبة أمل وأن جهودهم قد ذهبت هباءً .. فلا رجلَ أنقذوه، ولا مالَ حصلوا عليه..

اقترب أحدهم وجعل يضع يده وإذنه على صدر الإمام .. فصاح بالقوم: إن الرجل ما يزال حياً .. لا زال قلبه ينبض...

فأسرعوا إلى إخراجه ... وانطلقوا به إلى نهر قريب، وجعلوا يصبون الماء على وجهه وجسده فأفاق من غيبوبته ليبدأ في العودة إلى الحياة من جديد.

{وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىٍّ أَرْضٍ تَمُوتُ}

وهكذا أراد له هارون موتاً وأراد الله له حياة..

فلما أفاق نظر إلى وجوه من حوله فلم يعرف منهم أحداً ... فأخبروه بالأمر..

ولما تماثل يحيى بن عبد الله للشفاء طلب منهم الإمام رقعة يكتب

لهم عليها إلى يحيى بن مالك الخزاعي، وكـان مـن شـيعة أهـل البيـت عليهم السلام.

فلما مر عليهم ركب يحيى بن مالك ناوله أحد الحفارين الرقعـة ... فقرأ ما فيها .. وأمر الحفار أن ينتظـر في مكانـه .. فلـما عـاد وأدرك أن الحفار صادقٌ... دعاه وطلب منه أن يخبره بخبر يحيى بن عبد الله.

فلما انتهى الحفار من ذكر القصة ... بكى يحيى بن مالك الخزاعي بكاءً شديداً ثم التفت إلى الحفار وأخرج بدرة فيها دنانير ثم سلمها للرجل..

يحيى بن مالك إدفع هذه البَدْرة إلى يحيى بن عبد الله وقل له يقول لك يحيى بن مالك الحق ببلاد الترك والطو الأرض ولا تعترف إلى أحد من الناس بنسبك وصلك

فلما أقبل الرجل بالمال على الإمام. أخذ الإمام منه دينارين وسلّم الباقي للرجل وأصحابه.

ثم شكرهم على حسن صنيعهم وولى ذاهباً يقصد بلاد الترك متخفياً[1].

(٣)

كان أصحاب يحيى قد تفرقوا في البلدان خوفاً من بطش الخليفة هارون.

وكان من بينهم رجل اسمه منصور -من بخارى ... كان قد ترك بخارى وانتقل إلى قومس ... فلما نزل الإمام بلاد قومس عرفه منصور البخاري فجعل يتبعه حتى أدركه في معزل من الناس ... فاعتنقه وجعل يقبله .. فعرفه الإمام.

منصور: أين تريد يا مولاي؟

يحيى بن عبد الله: أدخل بلاد الترك.

منصور: لا تفعل ولكن أقم عندي ولا نُعلم أحداً من خلق الله من

---

(١) عن (أخبار فخ) بتصرف.

وكُتب للإمام الحبر العالم سليل النبوة .. أن يعيش منكر النسب.. غريباً عن وطنه وأهله .. منكراً في ديار الإسلام.. مستتراً مستخفياً..... وكأنه فاسق زنديق. لاحبراً عالماً كريماً فاضلاً.

بينما كانت الشائعات كلها تحكي موت يحيى فمنهم من يقول أنه وضع طعاماً للأسود ... ومنهم من يقول أنه خُنق أو سم أو مات في سجنه جوعاً..

* * *

وفي سجون بغداد تعود الذاكرة بيحيى بن خالد البرمكي إلى الأحداث التي مرت به يوم كان وزيراً مطيعاً للخليفة.

وهنا تذكر يحيى بن خالد أن يحيى بن عبد الله حمّله رسالة إلى هارون وغلظ عليه أن لا يعطيه إلا بعد وفاته.

فجعل يستعطف الحرس أن يبلغوا الخليفة أن له رسالة عنده وأنه يريد أن يبلغها له.

وبعد زمن أحضر يحيى بن خالد بين يدي هارون .. فدلهم على موضع الرسالة ... فإذا هي رقعة صغيرة مكتوب عليها:

بسم الله الرحمن الرحيم .. يا هارون؛ المُستعدى قد تقدم .. والخصم بالأثر .. والحاكم لا يحتاج إلى بينة.

فبكى هارون حتى أبكى الحاضرين وسالت دموعهم وجعل يكفكف دموعه ويقول: ألا أعطيتني هذا المكتوب قبل موته؟ لماذا لم تعطني هذا في حياته؟

يحيى بن خالد –وقد علا صوته بالنحيب وعيناه تنهمران بالدموع:

– والله يا أمير المؤمنين إن يحيى بن عبد الله أخذ مني العهد أن لا أنظر إلى المكتوب أو أسلمه إليك إلا بعد موته، وقد والله كرهت أن

أخونه فلم أعلم ما فيه إلا اليوم.

* * *

وفي سنة ١٩٠هـ أخذت الحمى تنهك جسم هارون واجتمع إليه أطباء العراق يعالجونه، ثم استعان بأطباء الروم والهند، واستجلب الأطباء من الآفاق فلم يغنوا عنه شيئاً، ومضت ثلاثة أعوام وهم يحاولون في علاجه فلم يزده العلاج إلا شدة، فما دخلت سنة ١٩٤هـ إلا وقد أثرت به وأنهكت بدنه واشتد ألمه وتمادى به حتى هلك[1].

{وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ۝ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ}

---

(١) زيادة من المصحح عن كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة، بتصرف.

الفهرس

تصدير ٦
إفتتاحية ٩
مدخل ١٢
الباب الأول ١٤
الفصل الأول ١٥
الفصل الثاني ٣٥
الباب الثاني ٥٥
الفصل الأول ٥٦
الفصل الثاني ٧٧
الفصل الثالث ٨٨
الفصل الرابع ١١٠
الباب الثالث ١٣٦
الفصل الأول ١٣٧
الفصل الثاني ١٥١
الفصل الثالث ١٧٠
الفصل الرابع ١٩٠